لكي تشفى من مخاوفك، عليك أولا أن تعترف بها

مخاوفي السبعة

سلافيدين أفيدتش



ترجمة: محمد أسامة

روايات مترجمة

مخاوفي السبعة

سلافيدين أفيدتش

الكاتب البوسني

على قائمة «الجارديان»: لأفضل كتب 2014

ترجمه: محمد أسامة



مخاوفي السبعة

سلافيدين أفيدتش

ترجمه: محمد أسامة

تحرير: صبحي خميس

الطبعة الأولى: 2015

رقم الإيداع 2014/21124

الترقيم الدولي: 978-977-319-210-5

الغلاف: محمد السيد

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت: 27921943 - 27954529 فاكس: 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Originally published in English by Istros

* قام المؤلف بإضافة 33 ملاحظة هامشية إلى النص في أماكن معينة

وقد احترم الناشر ذلك وقام المترجم بترجمتها ووضعها في مكانها



تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

This book has been translated with the assistance of the Sharjah International Book Fair Translation Grant Fund

بطاقة فهرسة

أفيدتش،سلافيدين

مخاوفي السبعة: رواية من الأدب البوسني/سلافيدين أفيديتش: ترجمة محمد أسامة.- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع 2014

- ص؛ سم. تدمك 9789773192105

1- القصص اليوغوسلافية أ- أسامة، محمد (مترجم)

ب- العنوان 891,823

لا أملك اختيار قارئ هذا النص أيًا من يكون، فهذا الأمر خارج استطاعتي. ولعل ذلك شيء جيد، فما كنت يومًا أحسن الاختيار. لذا، أترك القرار للصدفة وآمل ألا يقع اختيارها على قارئ متهكم لا يطاق.

تبدأ هذه القصة - التي أنتوي سردها بالطريقة المثلى - في السابع من مارس ٢٠٠٥. نشرت صحيفة «ليبيريشن» اليومية في ذلك اليوم صورة لعامل بلدية يزيل كومة ثلج هائلة من إحدى شوارع «سراييفو». وفي الصفحة الرابعة من نفس العدد ظهرت صورة لقرية «ليوتا نا تريسكافيكا». أظهرت الطباعة الباهتة أسطح المنازل البارزة من بين ركام الثلج، وأنبأنا عنوان الخبر أن ارتفاع الكومة قد بلغ سبعة من الأمتار.

انقضى أغلب الشتاء ما بين غيم ومطر. وبدأ الجليد يتساقط مع بداية مارس كأنما أصابه الجنون. كُراتُ صغيرة كحبيبات فِلِّين، هبطت متتابعة بمعدل ثابت، واستمر سقوطها أياما. أثار ذلك البهجة في نفوس أطفال المدينة في الأيام القليلة الأولى. فاتخذوا من كل منحدرات المدينة ساحات للتزلج، ليستمر احتكاك الزلاجات بالشوارع حتى وقت متأخر من الليل. لكن سرعان ما تملك الضجر من الأطفال، وبذلك استحق شهر مارس من ذلك العام أن تخلد ذكراه، لكونه الشهر الذي صار فيه كل شيء - حتى الجليد - مملًا في نظر الأطفال. ومع مغادرة آخر الزلاجات للشارع، صار الجليد مصدر إزعاج حقيقي.

لم يمر على تلك الوقائع زمن طويل، لذا أجدني قادرًا على تذكر التفاصيل جيدًا. وسأحرص على سرد الأحداث منضبطة، فهو أمر - على أي حال - يصب في مصلحتي. ولما كان تذكر عين الكلمات الواردة في بعض المحادثات - بطبيعة الحال - أمرا عسيرا، فسأتخير على قدر الإمكان، من الألفاظ أكثرها دقة وبلاغة. فللألفاظ دور كبير في حفظ ترابط القصة. كما سيتعين علي التزام الصدق كلية؛ فبالرغم مما للأكاذيب من فتنة؛ إلا أن تكلفتها فادحة. وذلك الحكم ليس بخطاب حماسي، بل هو خلاصة تجربة.

والآن يمكنني بدء القصة.

قضيت في الفراش تسعة أشهر. لم أكن مريضًا، بل كنت - جسمانيا - على ما يرام. أو على الأقل لم أكن أسوء حالًا من المعتاد. إلا أنني - وببساطة - كنت أفتقر إلى دافع كاف لمغادرة الفراش. استلقيت لساعات على ظهري أتأمل أشعة الشمس تتسلل عبر ثقوب الستائر. أصغيت إلى حشرجة أنابيب الماء، وأصوات الجيران الصادرة من خلف الجدران، وصرير المصعد الميكانيكي، ومخالب الحمائم وهي تخدش الحواف المعدنية للنافذة. حملقت في السقف، وتناولت بسكويتًا مذابًا في الماء... استغرقت في النوم... وفقط. كان ذلك كل ما فعلته في تلك الأيام، وكل ما رغبت في القيام به. لم أكن سعيدًا. وسأبين سبب ذلك فيما بعد. أما الآن، ولكي لا ينشغل الذهن عن الأحداث بالتخمين، فيكفيك أن تعرف أن زوجتي التي ظننت حياتها تستحيل بدوني قامت بهجري، بعد زواج دام

عشر سنوات. وبما أنه لا مجال في قصة كهذه للخداع، يتوجب علي الإقرار بأن رحيلها كان خطئي أنا.

في الليلة ما بين السادس والسابع من مارس، قررت فجأة وبدون أي سبب مفهوم أن الوقت قد حان لترك الفراش. عدت إلى صفوف الأحياء في يوم الاثنين الموافق السابع من مارس ٢٠٠٥. كانت الساعة تدق السابعة تمامًا عندما فتحت عيني مع أول صوت صدر عن المنبه. اغتسلت ونظفت أسناني وكذا مارست تماريني الصباحية: عَدّات ضغط أربعة أصابت رأسي بالدوار ومعدتي بالغثيان. ثم أشعلت سيجارتي الأولي. وحسب ما أتذكر، فإن «أوسكار وايلد» هو من وصف السجائر بأنها مشاعل تؤجج نيران الثقة بالنفس، وأن بمساعدتها يصير الغوص في مجال إدراك الذات ممكنا. أما التدخين بالنسبة لي، فهو عادة سيئة، مخدر يعجز عن التملك منك، أو هو دواء لطيف يوفر راحة البال. علاوة على ذلك، فإن الوحدة لا تعرف طريقها إلي أبدا ما دامت السيجارة بين أناملي، كما يقول إعلان السجائر التقليدي.

برفقة هذا الدخان بدأتُ أولى مغامراتي. ولا أحتاج لشرح مقدار ما كنت عليه من توتر ورعب وتردد. إلا أن الوقت كان قد حان لشيء من التغيير. فالتحفت معطفي وغادرت. ونويت بدء اليوم بشراء الجريدة، لأقرأ عما فاتني خلال الأشهر التسعة السابقة، وكيف جرى ذلك العالم الواقع خارج فراشي. لم تزعجني كريات الثلج المتساقطة عندما عبثت بها الرياح الخفيفة فألقتها بها ما بين عنقي وياقة معطفي. سحبت عددًا من جريدة «ليبيريشن» بعجالة، كي لا يتسنى للبائعة بدء حديث

معي، ودفعت ثمنها ثم تسللت عائدا إلى شقتي. وضعت براد القهوة على الموقد وفتحت المذياع. "موعدكم هذا الصباح مع فرقة «رولينج ستونز». حيث نستمع معًا لـ«مقاتل الشوارع»، وهذا العمل الموسيقي تم تسجيله منذ وقت طويل، تحديدا في عام ١٩٦٨". جاء صوت المذيعة جادًا، يشبه البكاء، كأنها تقرأ نبأ وفاة شخصية هامة. أيقظت تلك الجملة داخلي شعورا بالسكون غاب عني طويلا، سلام نفسي من الطراز القديم، شعور بالأمان يفوح منه عطر الطفولة. لم ينتابني شعور كهذا منذ زمن بعيد. مددت جسدي وحاولت أن أستنشقه، أن أستشعره في أنفي ورئتي، أن أتشبث به كي يتسنى لي - وقتما أريد - تذكره جيدا.

تناولت قهوتي واستمعت إلى الأغنية بينما أتأمل الناس عبر النافذة يشقون طريقهم في الجليد الذي ارتفع ثلاثة أقدام أخرى خلال الليل. يغدو سرب من الحمام الأبيض الوديع محلقًا فوقهم ويروح. عندما فتحت الجريدة صادفت مقالًا أعلى الصفحة الثانية يذكر أن فرق البحث عن المفقودين التابعة للمفوضية الاتحادية عثرت على ٣٦٣ مقبرة جماعية منذ عام ١٩٩٥، تم استخراج ١٣٩١٥ ضحية منها. وفي الصفحة الخامسة جاء تحذير مركز مكافحة الأوبئة التابع للمعهد الاتحادي للصحة العامة من أن سوء الطقس سيزيد من أخطار العدوى الوبائية، بخاصة أمراض الجهاز التنفسي والالتهابات السحائية، بالإضافة إلى أخرى كالالتهاب الكبدي والتيفوس المعوي والإسهال. وفي الصفحات المخصصة لأخبار العالم، قدمت «جوليانا سجرينا» - صحفية في الجريدة الإيطالية «إل مانفيستو» - شرحًا لكيفية تحريرها من أحد سجون العراق، واتهمت جنودًا أمريكيين بإطلاق النيران على سيارتها.

كما ذكر مراسل الـ«لوكال» في روما إعلان إيطاليا الحداد على الفقيد «نيكولا كاليباري»، عميل المخابرات الإيطالية الذي لقي مصرعه على يد دورية أمريكية. ويستعد «فلاديمير بوتين» للاحتفال بيوم النصر على الفاشية؛ وتعهد «جاك شيراك» بدعم الاستقلال الفلسطيني، كذا أنشد الملاكم «مايك تايسون» أغنية «نيويورك، نيويورك» في الاحتفال المقام بـ«سان ريمو». هذا ويتيح البرنامج التليفزيوني للمشاهدين الاختيار من بين ثلاثة أفلام: فيلم الحركة والإثارة «مرة في العمر»، أو فيلم الميلودراما «ذلك هو الحب»، أو دراما السيرة الذاتية «فريدا».

وبينما أفكر أي من تلك الأفلام يناسب اليوم الأول لعودتي إلى الحياة، سمعت شخصًا ما يطرق الباب: ثلاث طرقات برفق. ظننته أول الأمر وهمًا، فقد مضت مدةٌ طويلة منذ طرق أحدهم الباب في مثل هذا الوقت المبكر من الصباح. لكن الطارق أعاد الكرَة ثانية، ثلاث طرقات ثانية أتبعها هذه المرة بالجرس. فنهضت من على المقعد وتوجهت إلى الباب لكني فجأة توقفت. طالعتني في المرآة صورة كئيبة ومجعدة وشاحبة. كنت أرتدي بنطالًا مُشَوَّهًا تملؤه البقع والثقوب، مع سترة كانت في وقت ما قبل الحرب خضراء اللون، على ظهرها شعار كبير يرمز لأحد مصانع الملابس. فكرت حينها في تغيير ملابسي؛ لكني قدرت أن ما طرأ على حياتي من تغييرات هذا الصباح كان كافيا.

تقف «ميرنا» أمام المدخل. منتعشة ومبتسمة. ومن ورائي تتثاءب الشقة ذات غرفة النوم الواحدة، كفم عملاق قذر الأسنان.

- صباح الخير، آمل ألا أكون قد أزعجتك، هل جئت مبكرة؟

حينها تذكرت. ثمة احتمال لوجود سبب آخر دفعني لترك الفراش اليوم. فقد تحدثنا معًا - أنا و«ميرنا» - في الهاتف الليلة الماضية. لا أستطيع تذكر شيء من تلك المكالمة، فقد أيقظتني من النوم وكنت متعبًا. لم أرغب في شيء ساعتها غير إنهاء المكالمة بأسرع وقت ومن ثم العودة إلى الفراش. لكن من المؤكد أن حديثها تضمن رغبتها في زيارتي، أو ما يشبه ذلك، فها هي، واقفة أمام المدخل بابتسامة واسعة.

- يبدو أن الوقت غير مناسب للزيارة.

شددت بنطالي لأعلى، والتفت سريعًا أتفقد حال البيت، ثم أجبت:

- هذا صحيح. أيمكنك معاودة الزيارة بعد ساعة؟

بدا صوتي أجشًا وحادًا وأجوف، فقد خرجت للتو من صمت طويل. إلا أنها تفهمت، وعاودت الابتسام، ثم أومأت برأسها وهبطت الدرج مغادرة.

كنت أنوي استغلال الساعة التي التمستها في تنظيف الشقة؛ رغم شكي في عودة «ميرنا». فلم أكن لأعود إن كنت مكانها؛ وكان الشخص الذي ينتظرني ينظر ويفكر ويتصرف - وبشكل عام يحيا - كما أفعل. ولما كان ذلك ما أعتقده حقا، عدت إلى المقعد وجلست. فما كنت أجد في هذا الوقت أي قدر من السعادة...

لم تسفر محاولتي تذكر المكالمة الهاتفية عن أية فائدة. كانت علاقتي بـ«ميرنا» سطحية، كحال علاقتي بكثيرين قبل الحرب. لم نتحدث إلا مرات قليلة. كانت تهوى الرسم بالفرشاة، وغالب الظن أن معظم حديثنا دار حول

ذلك، رغم افتقاري للخبرة في هذا المجال. ومن المؤكد أن الخلفية الفنية لسائر معارفها كانت أشد سوءًا، لأنها قابلت كل ملاحظة أو تعليق واهٍ قدمته بحماس شديد. ثم اختفت أثناء الحرب. لم ألحظ اختفاءها، فكل شيء كان يختفي حينها: البشر والأشياء والعادات والتقاليد. كم هائل من الكلمات. حتى أن القرية نفسها تبدلت تبدلًا شبه كامل. وبكل سلاسة، اعتدت علي فراق الناس، بالضبط كما اعتبرت العجز في الطعام والماء والكهرباء وقائع عادية. بل إن وقع ملاحظتي اختفاء أحد أنواع الكولا من حياتي لم يختلف أبدًا عن وقع ملاحظتي اختفاء صديقي الذي اعتاد شراءه.

مع رنين جرس الباب، أدركت خطئي: لقد عادت. شعرت بالضيق أني لم أزح الجوارب القديمة والأطباق القذرة إلى أحد الأركان. لكنني لما فتحت الباب وجدت «إكرام»، القائم علي الأمور داخل المبني وسائق الأجرة خارجه. كان يحمل في يده دفتر ضخم، صفحاته مليئة بالجداول والأرقام.

- صباح الخير يا جاري العزيز، إنه موعد دفع راتب عاملة النظافة، فنحن نجمع المال من المستأجرين - كما تعرف - في السابع من كل شهر. وبما أنك ما تزال في عداد الأحياء، فعليك مستحقات تسعة أشهر.

استدرت لأخرج المحفظة من جيب معطفي، عالمًا تمام العلم أنه يمد عنقه الآن لينظر متطفلا داخل الشقة. دائمًا ما يفعل ذلك، مما يجبر ربات البيوت على تنظيف منازلهن شيئا ما قبيل مروره. وعندما التفت لأواجهه ثانية، خطا خطوة سريعة إلى الوراء، وابتسم مشيرًا بذقنه إلى معدته السمينة.

- بلوفر جيد، أليس كذلك؟

كان البلوفر الصوفي - وعليه صورة ذئب عاوي - ممطوطًا بسبب ضخامة بطنه. لكني أومأت له برأسي مؤمنًا على كلامه.

- لقد حصلت عليه بفضل فحولتي.

قالها بكل رضا.

أعرف ذلك أيضا. كان يثرثر دائما عن الهدايا التي ترسلها إليه زوجته السابقة من الخارج لم تزل، رغم زواجها من ألماني متقاعد. وفي ذلك إشارة من «إكرام» إلى كون تلك الهدايا تعبيرا عن امتنان المرأة لليالي ممتعة قضتها وتقديرا لخبرته الجنسية الاستثنائية.

- كيف حالك؟ أم أنك لا ترغب في الحديث؟

أومأت ثانية وناولته النقود. فغمز لي بعينه وقدم لي الدفتر للتوقيع. أغلق الباب وسمعته يضغط جرس الشقة المقابلة:

- صباح الخير يا جاريْ العزيز، بلوفر جميل، أليس كذلك؟

قررت حينها تهذيب المنزل بعض الشيء. تحسبًا لعودة «ميرنا». لم أولي الأمر اهتمامًا كبيرًا؛ بالكاد أزحت تلك الجوارب والأطباق. ولما لم تكن بي طاقة للقيام بشيء آخر، عدت إلى المقعد وانتظرت...

كان في الخارج رجل وامرأة يلعبان في الجليد مع طفلة صغيرة. يضع الرجل كفيه فوق عينيه، بينما تبحث المرأة والطفلة - ضاحكتين - عن مكان للاختباء. وأخيرًا وجدتا كهفًا يطل من بين الثلوج. أما الرجل ففتح عيناه، ونزل علي يديه وركبتيه يتشمم آثار أقدامهما، بينما يكنس شاربه الكث الثلج أمامه. وعندما بلغ مخبأهما نبح بصوتٍ عالٍ، وتدحرج إلى الأمام ثم زحف إلى الداخل. وانغلق من وراءه باب يكسوه الثلج محدثًا صريرًا غير معتاد. راح سربٌ من الحمام الأبيض يحلق في السماء، وأخذت سرعته تزداد إلى أن أصبح كالدائرة المتلألئة. ثم شكل السرب سهمًا ظل لوهلة ساكنًا في السماء. استدار بعدها باتجاه الأرض وهبط منقضًا بحسيسٍ مسموع. وبينما الطيور تخترق الثلج كطلقات مدفع آلي، شرع المذياع خلفي في بث موسيقي شعائرية وأصدر جرس الباب صوته المزعج. فمسحت على شعري ثم أدرت مقبض الباب.

يقف في الممر رجل له عينين كبيرتين محتقنتين: هما أكبر ما رأيت في حياتي من العيون. تلفظ بشيء ما، لكنني - رغم المحاولة - لم أتمكن من فهم كلمة واحدة. يتحرك فمه الصغير كالديدان في الوحل وهو يكرر ما بدت لي أنها الكلمات ذاتها. بدا محتجبًا خلف عينيه الضخمتين، اللتان منعتاني - بطريقة ما - من رؤية سائر وجهه. يسبح بؤبؤا عينيه الداكنين في الدماء، وفي انعكاسهما الصافي كان وجهي المرتعب طافيًا. ازدادت سرعة فمه، وبدا كأنه شرع في الصياح، لكنني لم أستطع التيقن... ثم استيقظت.

عندما استيقظت، كان الظلام قد رسم علي الثلج ظلالا عريضة. أظهرت الساعة أني قضيت وقت الأصيل كله نائمًا، وما كان ذلك بأمر

غير مألوف. كان يمكنني النوم - حينئذ - بشكل متواصل. يكفي أن أجلس، وأمدد قدمي، لتصير رؤيتي ضبابية. لم يكن النعاس لينفك عني مهما قضيت من وقت نائمًا. لكن ذلك المقدار من النوم كان كافيًا. ذهبت إلى الحمام عاقدًا العزم علي الاستحمام. لكن لما فتحت الصنبور وجدتني أحملق في تيار الماء. كان بديعًا، ومتألقًا، ومنعشًا. كنت لأحدق فيه لساعات. بل إني - حقيقة - فعلت.

لم تعد «ميرنا» في ذلك اليوم. انتظرتها علي المقعد، محدقًا عبر النافذة. وواصل الجليد تساقطه، كأنما يسعى لخنق المدينة. لكنه لم ينجح. واستمر الناس يطؤونه معاندين. كانوا يمرون أمام النافذة مخلفين ممرات متداخلة بشكل جنوني وعشوائي. من الصعب العثور على بقعة في الجليد لم تطأها قدم. لا سبيل إلى جليد طازج غير الاستيقاظ مبكرًا، وإلا فلا طائل من الخروج أصلًا، فبإمكانك مشاهدة كل شيء عبر النافذة. قمت بتحديد أول ما أضيء من نوافذ المجمع السكني المجاور. ثم شاهدت نصف فيلم (وقع اختياري علي «قصة حب») وطويت بضعة صفحات من كتاب. لا أذكر أي كتاب كان، لكني أذكر أني وجدت ذلك كافيًا كبداية لعودتي إلى الحياة. واستغرقت في النوم.

وقفت في اليوم التالي، حوالي منتصف النهار، أمام النافذة بكوب كبير من القهوة. كان ضيف الإذاعة طباخًا يشرح كيفية شوي السمك - "تحتاجين إلى عشر دقائق عند سمك ثلاثة سنتيمترات" - أو شيء من هذا القبيل. وكانت النساء في الشارع تحملن باقات الزهور. تحمل كل واحدة باقة علي الأقل، وبدا لي أنهن يحملنها ككأس أو كعصا مايسترو.

ثم أعلن رنين الجرس عن قدوم زائر، وهناك عند الباب كانت «ميرنا» واقفة تنتظر، بابتسامة أكبر من ابتسامة الأمس.

- يجب أن تسمح لي بالدخول اليوم. إنه يوم المرأة العالمي.

هذا صحيح، كان اليوم هو الثامن من مارس. ومع دخول «ميرنا» للشقة، فقدت ثقتي فجأة. أذكر أني عجزت عن استحضار كيفية استضافة امرأة قدمت بغتة. عرضت عليها كوب قهوة، إلا أنها رفضت، وبرفضها ذلك جردتني من الفكرة الوحيدة التي كنت أملك. جلست علي الكرسي واضعًا كَفًّيا علي حجري. إلا أني استمتعت - رغم توتري ذلك - برؤيتها جالسة في مطبخي.

لعل الوقت قد حان لوصف «ميرنا». كنت أفضل تشبيهها بامرأة شهيرة، لكني لا أستطيع الآن استحضار من تصلح لعقد المقارنة. لـ«ميرنا» شعر أسود، قصير، يكاد يطابق طول الشعر الرسمي للجيش الوطني اليوغوسلافي. يمكن اعتبارها قصيرة، وأسمن مما ينبغي ببضعة كيلوجرامات، وربما كان فمها الواسع ليبدو أفضل علي وجه أكبر حجمًا. عيناها سوداوان تتوسطهما كرتا نورٍ، وأجمل ملامحها هي ابتسامتها: صادقة ودافئة ومستعدة للظهور لأهون الأسباب. إنها ابتسامة كالدواء. وهي ما جعلتها تفوق زوجتي جمالًا. (أقارن كل النساء بزوجتي. وألحظ شيء منها في كل امرأة، تماما كما يبصر المهووس دينيًا وجه نبي في كل تجعيدة).

خطر ببالي الآن الوصف الأمثل لـ«ميرنا»: كان بها نوع ما من النقاء، بجسد ووجه واضحا الحدود، كأنها صورة علي شاشة عرض حديثة. لا

أعرف كم قضيت من الوقت محدقًا فيها، وهو فعل لم يبد لي أنه أزعجها. لم تتكلم، كانت مبتسمة فقط. من الواضح أن الصمت لا يقلقها، بينما يوشك الصمت أن يدفعني إلى الجنون دفعا. لكني لم أحاول - رغم ذلك - كسر هذا الصمت. بل تلبسته؛ فبدأت أعاين الشقة عبر عينيها، لأدرك على الفور استحالة نيل الشقة رضاها. يكسو الغبار كل شيء؛ ولو كان رج الشقة ممكنًا، لأسفر ذلك عن عواصف شبيهة بما يحدث داخل بلورات الثلج الصغيرة. ليس فيما تحوي الشقة شيئا يلمع، كل الألوان منطفئة، حتى ضوء النهار لا تأثير له، كما لو كانت الحجرة المتجهمة تبتلعه. ومع ذلك لم يكن باستطاعتي فتح الستائر، خشية كشف المزيد من الضوء عما هو أسوء. تركت المقعد مستعيضًا عن الاستئذان بابتسامة خفيفة، وفتحت النافذة للتخلص - علي الأقل - من رائحة التبغ، والعرق، والأوكسجين المُستعمل - رائحة الوحدة. حينئذ خطر ببالي أن شيئا من الموسيقي قد يفيد، مستحضرًا في ذهني قدرتها على تغيير جو أي حجرة بسهولة. إن كنت لا تصدقني فعليك أن تجرب. قم بتشغيل أنواع مختلفة من الموسيقي في غرفة خالية، وبينما تكيف الحجرة نفسها علي الموسيقي، ستري كيف تتحرك الظلال، وينشط الهواء، وتختلف درجات الضوء، كتبدل المسرح ما بين فصل وآخر.[1] إن الصمت التام مستحيل الوجود. علي الأقل في هذا العالم، ربما له وجود في الفضاء الخارجي أو في باطن الأرض، حيث الظلام والبرودة فقط. وضعت

---

[1] عندما أقرأ وصف حجرة، لا تكفيني معرفة تصميم الأثاث، ولون الستائر على النوافذ، واحتواء طبق الفاكهة على ثمار طازجة من عدمه، وكون طلاء الحوائط زيتيا أم بألوان الماء، وهيئة المنضدة، أدائرية هي أم مستطيلة، وفي أي الأركان توجد المكتبة، وأين توضع المدفأة... إنما أريد معرفة نوع الموسيقى الصادر عن المذياع، أو - على الأقل - طبيعة الضوضاء الصادرة عن الشارع.

أسطوانة في مشغل الأغاني. لا أذكر أي واحدة كانت.[2] لكني أذكر أني اعتدت الاستماع لموسيقي الأبواق عند توتري. وقد كنت حينها - إن أسعفتني الذاكرة - متوترًا بعض الشيء.

انتظرتني «ميرنا» بصبر ريثما أنهي التجهيزات. ولما عدت إلى المائدة بدأنا فجأة في الحديث، كأنما توصلنا صدفة إلى التردد الصحيح. تحدثت عن السويد، ومكتباتها الضخمة الواسعة حيث تصطف الكتب كالمنحوتات، وتفاخرت بقدرتها على التجول في الشتاء بشعر مبلل دون إصابتها بالبرد، كما أخبرتني بقصة الـ«يارڤا»، أكثر الحيوانات عصبية في العالم، والذي لا يطيق تواجد «يارڤا» آخر في مدى مقداره مائة كيلومتر مربع. لم أتحدث كثيرًا؛ جاء أغلب كلامي تعليقًا على الاختلاف الذي طرأ على الأوضاع هنا، مقارنة بالفترة التي سبقت الحرب، وكيف أن الأمور - رغم ذلك - لم تتغير كثيرا؛ لكنها بطبيعة الحال تختلف تمامًا عن السويد.

استمر حديثنا علي هذا المنوال وقتًا طويلًا، ربما لساعتين من الزمن، قضيتهما أنتظر اللحظة التي تفصح فيها عن سبب زيارتها. بدا لي أنها تماطل عن وعي، تحاول مسرعة فتح مواضيع جديدة تملأ بها أي لحظة صمت. أخبرتني كيف أنها تتجنب أهل وطننا في السويد، أنهم منقسمون إلى نواد وطنية حيث يعانقون بعضهم البعض علي صوت موسيقي التوربين الشعبية، ويتعاركون علي نغمات أغان وطنية حماسية.

سألتني فجأة:

---

[2] أعرف أن نوع الموسيقى ليس أمرا هاما، لكن ذاكرتي الموسيقية التي تفرض نفسها على سرد الأحداث هي إحدى ميزاتي التافهة، لذا لن تكون هذه - كما سترى - هي المرة الوحيدة.

- أتذكر أبي؟

بالطبع أذكر «أليكسا»، لقد كنا أصدقاء. أعرفه جيدًا، بدرجة تفوق معرفتي بها.

أومأت برأسي، فطرحت سؤالًا جديدًا:

- هل كان يكثر من الشراب؟

بالطبع أذكر تناول «أليكسا» لكميات شراب أكثر مما ينبغي. بدأ عطشه في التنامي قبيل الحرب مباشرة، حينما صارت الكارثة متوقعة. حاول إخفاء الأمر في البداية. كان يذهب في عجالة إلى الحانات الشعبية، يحيي الزبائن بانحناءة رأس خفيفة، بطريقة شبه آلية، ويطلب براندي مزدوج. وما أن تضع النادلة الكوب علي المائدة، وفي لحظة ملامسة قعر الكوب للخشب، يمسك به «أليكسا» ويتجرع الكحول مرة واحدة، ثم يضع الكوب مصدرًا صوتًا رنانًا، ويغادر. بدون أية تحية هذه المرة. يستغرق الأمر بضع ثوان: تيك-توك-تاك ويغادر. علمنا فيما بعد أنه اعتاد تكرار الطقوس نفسها في سلسلة كبيرة من الحانات الشعبية المختلفة.

ما أن يغادر الحانة الأولى، حتى يعبر الطريق إلى الأخرى، ثم ينحدر في الشارع إلى تلك الحانة داخل الفندق المهجور، ومن هناك يعرج علي الحانة الواقعة قبالة موقف الحافلات، ثم إلى بقعة الشواء التي يريح فيها سائقي الأجرة أعصابهم؛ ومن هناك إلى بضع مقاهي تضج ليلًا بموسيقي التكنو، ثم نادي محبي الحيوانات الصغيرة، ثم حانة المسرح، ومطعم البيتزا، ونادي البلياردو؛ ثم يهبط في الطريق الرئيسي ليبتاع

مشروبًا آخر من الكشك داخل السوق، وفي مطعم الوجبات السريعة. وأخيرًا، وبعد أن يتم الدورة كاملة في ساعتين، يرجع إلى الحانة الأولي. يقف في المدخل ينفخ في كفيه متظاهرًا بتدفئتهما كأنما انتهي لتوه من يوم عمل شاق. يحيي النادلة بصوت عال ويطلب بحماسة براندي مزدوج، ثم يرتشفه ببطء، وهو في حالة من السكر التام. سرعان ما انكشف لنا أمره، لكن أحدًا منا لم يبح بسره. وأطلقنا علي تلك المناورة التي يجريها ليروي عطشه الهائل اسم «دورة براندي «أليكسا»». صحيح أني لم أره كثيرًا أثناء الحرب، لكني أشك في استطاعته الإقلاع عن عادة تمكنت منه كتلك.

لم أخبرها بكل ذلك. وإنما اكتفيت بالإشارة إلى أن كمية الكحول المتوفر أثناء الحرب لم تكن تكفي لأي شخص كي "يكثر من الشراب".

- كان «أليكسا» يشرب في المناسبات قليلًا، كحالنا جميعا...

ذلك ما قلته بالضبط. حسبت إجابة كتلك تسعدها، لكن ذلك لم يحدث. فقط ارتعشت فتحتا أنفها. سألتها عن أهمية ذلك بالنسبة لها.

- لكل شيء يتعلق بأبي أهمية كبيرة عندي. وهذا هو سبب مجيئي هنا.

تنفست بعميق، واستجمعت قوتها، وسمحت بعودة الضياء إلى عينيها والبسمة إلى وجهها، ثم شرعت في حديث أكثر ملائمة لها. أظنها ذكرت شيئا عن زيارتها معرضًا لـ«مونيه» في ستوكهولم، وهو من كان حينئذ رسامها المفضل. قالت إنها استمتعت برؤية الكيفية التي يغير بها الضوء المظاهر. لم أشاركها الحديث، ولا أحسبها توقعت مني فعل ذلك.

كنت أفكر في «أليكسا»؛ أجري جردًا سريعًا للذكريات. كان رجلًا صالحا. كان اسمه «أليكساندر رانكوفيتش» وهو ما كان يضايقه. كان يكره الربط بينه وبين قائد الشرطة سيء السمعة الذي تجرأ وتجسس علي «تيتو»، لذا فما أن يتم تقديمه كـ«أليكسا رانكوفيتش»، حتى يضيف فورًا: "«أليكسا»، كالكاتب الشهير «أليكسا شانتيتش»". كان له شارب يهذبه في أول أيام الربيع، كل ثلاث سنوات. كان يهوى شرب الجيد من البراندي المنزلي الصنع، وبما أن المرء لا يصادف ذلك في الحياة إلا نادرًا، فكان يضطر لشرب براندي الكرم العادي؛ أما البيرة فلم يكن يقربها أبدًا - فقد كانت تسبب له الاكتئاب. عندما يحسن الكحول مزاج «أليكسا» ستسمعه يردد رباعيات الخيام بصوت خفيض، أو يدندن أغنية البوب القديمة «أنت تعني الكثير لي، يا عزيزي». كما كان يهوى الحديث عن القصص الإباحية في كتب «سكيندر كولينوفيتش» و«حمزة هومو»، وشرح السر في كون مشية الشقراوات ذوات السيقان الطويلة هي الأكثر إغراء. يتحدث عن ذلك كله والكأس في يده. كان ذلك كل شيء... حسبما أذكر... وبينما تتحدث «ميرنا» عن أحدث الأشياء التي تثير شغفها، كنت أفكر في كمية الأشياء التي أجهلها عن «أليكسا» - اسم زوجته، وما إذا كان له إخوة أو أخوات، ومما يخاف، وإن كان أبواه ما يزالا علي قيد الحياة، وكيف يكون حاله إذا ما غضب، وما الشيء الكفيل بإثارة غضبه... لم أزره أبدا؛ لا أعرف حتى مكان سكنه. لم أره يبكي أبدًا، ولم يسألني المساعدة قط، ولم أعرف أي الأشخاص في مجلس التحرير يحب وأيهم يبغض... أوه، هناك ما أعرفه عنه...

كان مراسل إذاعة قدير. نالت تقاريره جوائز في احتفالات الإذاعة، وأعجب المستمعون بالصور الحياتية التي قدمها. عثر «أليكسا» علي شخصيات مثيرة للاهتمام في المصانع، والقرى النائية، والضواحي، والتجمعات السكنية في المدن: مصممو أبنية علي طراز عصر النهضة من عيدان الكبريت، وأشخاص يصنعون طائرات بدائية من المخلفات، وجامعو فراشات نادرة، وزوجين لهما عشرة أبناء يعيشون في مساحة عشرة أمتار مربعة، ومتعقبو أساطير، وجميلات عفا عنهن الزمن، وأناس يملكون القدرة على التخاطر عن بعد، ومجرمون سابقون، وصانعو معجزات محترفون، وأصحاب شهية جنونية، ودعاة تطرف، وعشاق ذائعو الصيت، ونشالون... تعرف بالطبع ذلك النوع من التقارير؛ يسعى كثير من الصحفيين خلفه. إلا أن اختلاف «أليكسا» عن البقية كان في حبه الصادق لنماذجه. لم يتملقهم، ولا - لا قدر الله - سخر منهم، يظهر حديثه معهم شغف حقيقي بأحوالهم، كأنما هم أصدقائه. أطلق عليه المستمعون «أليكسا» العزيز»، وكتبوا له الأشعار، وأرسلوا له التهنئات بعيد الميلاد ورأس السنة، واستفسروا عن صحته. أظنهم أيضًا أحبوا لهجته الشتوكافية؛ ذكرتهم لكنته الصربية - غالبًا - بالمسلسلين التليفزيونيين الشهيرين «حياة أفضل» و«الرياح الحارة». وقابل بدوره هذا الاهتمام بحماس مماثل. لكنه توقف مع اندلاع الحرب عن تسجيل التقارير. فقد تم إعداد جدول برامج يلائم الأوضاع، وقدم اللاجئون إلى المدينة، ووحدها التقارير الميدانية كانت تذاع؛ شهادات عن الجرائم، وتنبيهات تخص العجز في الماء والكهرباء. لم تكن هناك حتى تقارير عن الطقس الجوي. لم تعد هناك مساحة لقصص الأشخاص العاديين. ما عاد هناك أشخاص عاديون.

أذكر ما كان من «أليكسا» في بدايات الحرب من كثرة الثرثرة، غير أن حديثه لم يكن منضبطًا. كان فيما مضى يختار كلماته بحرص، ويزنها علي لسانه، وينتقي أكثرها لطفًا، حتى عند تورطه في نقاش عارض؛ كان هذا أمر يعجبني كثيرا. لكن إيقاع حديثه أثناء الحرب ازداد سرعة، كأنما يخشى أن يوقفه أحد قبل إتمامه الحديث. أخذ يلعن الأحزاب الوطنية السياسية، ويؤكد بلا كلل أن الأحزاب اليسارية هي الأسوأ، وأن «كاراديتش» و«ملاديتش» دمرا حياته. في تلك الفترة، كان الكل يرغب في الإفصاح عن رأيه وما كان أحد يطيق آراء الآخرين. لكن ثرثرته تلك لم تستمر طويلًا، فقد صمت فجأة، واكتفي عموما بالاستماع للغير والإيماء بالرأس.

استمرت «ميرنا» في الحديث عن السويد... بلا أدنى أثر للكنة «أليكسا»، أخذت تتحدث عن برودة الجو والبشر، والقوارب الثملة التي تقلع في العطلات الأسبوعية، وأنفاق للضفادع، وبحيرات وغابات. لم تكن تنظر إلى عيني أثناء حديثها، بل إلى بقعة ما بين حاجبي، مما سبب لي الضيق. وفجأة توقفت، في منتصف جملة ما، وقالت إن عليها الذهاب. وبينما تربط حذاءها الرياضي في الممر، لاحظت أن شعر رأسها الخلفي مبلل بالعرق[3]. ثم أحكمت شد رباط الحذاء، وأسدلت ساقا السروال وقالت:

- كان أبي يبحث عن أشباح.

ثم رفعت عينيها وسألتني:

- هل تؤمن بالأشباح؟

---

[3] اعتادت زوجتي حينها أن تعقد شعرها على هيئة كعكة.

ارتبكت بالطبع، فلم أكن أتوقع سؤال كهذا في نهار أحد أيام الشتاء. بدا لي كأحد الأسئلة التي تطرح في منتصف الليل. لكنها لم تنتظر جوابي، كان لديها بالفعل سؤال جديد:

- هل يمكنني زيارتك غدًا؟

مرة أخري، لم تنتظر جوابي، وهبطت الدرج مغادرة.

لم أنتبه إلا لاحقًا أنه كان يتوجب علي إخبارها أني لا أؤمن فقط بالأشباح، بل وبمصاصي الدماء كذلك، والمستذئبين، والظهورات، والجنيات، والعرافات، والعماليق، والسحرة، والمنجمين، والعفاريت، والأقزام، والملائكة، والتنانين، والشيطان، وإبليس، و«بهيموث»، و«بعلزبول»، و«عشتاروث»، وجبريل، وعزرائيل، و«أسموديوس»، والكأس المقدس، وحوريات البحر، و«ساتير»، و«حريش»، و«قنطور»، و«المينوتور»، وحديقة حيوان «بورخيس» الأسطورية كلها، والبعبع، والـ«جولم»، والقط ذو الحذاء، و«بابا ياجا»... كان يجب علي أن أضيف إيماني بالحياة الأخرى، والجنة، والفردوس، وجهنم، والجحيم، وسماوات الـ«آزتك» السبع، والـ«فالهالا»، والـ«راكناروك»، وغابة الصيد الأبدية، و«هاديس»، ولوحات «هيرونيموس بوس»... وأني لا أبطن أدني شك في فوائد رقص الدراويش، وطقوس طرد الأرواح، والروحانية، والخيمياء، و«مذكرات خوجة»، والـ«كابالا»، وتكفير الدين، والأعمال السفلية، وقراءة ورق الشاي وحبوب القهوة وأمعاء الحيوانات والكفوف... أني أؤمن بجميع الخدع السحرية، والطفو في الهواء، ونشر المرأة نصفين، وتحويل شرائط القماش في القبعة إلى أرانب، والتنويم المغناطيسي الجماعي، والإيحاء... وأؤمن - صدقًا - بالتناسخ من كل قلبي

وروحي وبقايا ما كان عندي من منطق! فظني أنه لو لم أؤمن بالتناسخ فسيتملك مني الاكتئاب في الحياة القادمة. وكما ذكرت آنفًا، فإن بقائي وحيدًا لم يكن أمرًا يسيرًا. اشتد الكرب منذ أدركت أن الحياة لن تعود جميلة أبدا كما كانت. أنه لا علم نفس، ولا نصح، ولا إغواء، ولا رقص شعائري، ولا سحر أسود سيتيح لي أن أكون سعيدًا مرة أخرى مع زوجتي. لكن ذلك يكفي في الوقت الحالي، فلست في حالة تسمح لي بشرح ذلك كله، لكنني أعدك بإيضاح كل شيء بالتفصيل قبل نهاية القصة. أحتاج فقط أن أكون أكثر استعدادًا.

* * *

عادت في الصباح التالي. تحمل في حقيبة بلاستيكية، زجاجة نبيذ أحمر، ومفكرة بغلاف من الجلد الأسود.

- جئتك لنشرب ونثرثر معا. وهو ما يستلزم - بالطبع - دفعك للحديث أولًا. فلا يسع المرء فتح نقاش مع نفسه.

أصابني ذلك بالخوف. لم أكن أميل حينئذ للحديث عن نفسي. كان الإفصاح - في ظني - بمثابة إقرار بأبدية الحال المفصح عنه. إضافة إلى ما كنت فيه من خزي (ستعرف سبب ذلك - فله وقت سيحين أيضا).

- هل تتذكر سبب مكالمتي؟

أومأت برأسي. كنت مدركا لكذبي، إلا أني خجلت من الاعتراف بالنسيان.

- حتى تساعدني في معرفة ما جرى لأبي.

ظننت - كما الجميع - أن «أليكسا» قد ذهب إلى ألمانيا، ليجتمع بها ووالدتها.

- أليس في ألمانيا؟

- لا، لم أره منذ غادرت مع أمي في أوائل ٩٢. تسلمنا منه رسالة قصيرة في مارس ٩٣. طلب منا فيها عدم القلق، وطمأننا على حاله، فالعالم - حسبما قال - لم يخل من الطيبين بعد. وكان ما سوى ذلك مجرد استعلام: كيف حالنا، هل نملك من المال ما يكفي، هل تمكنت من الالتحاق بالمدرسة، هل تواظب أمي على العلاج. كان ذلك آخر ما وصلنا منه.

- ظننته تمكن من السفر إلى ألمانيا. ألا تعرفين شيئا عما جرى له؟

- لا أعرف، لا يعرف أحد شيئًا عنه. لم يكن هناك وجود لأدنى معلومة، إلى أن تسلمت تلك.

أخرجت المفكرة من حقيبتها ووضعتها على المنضدة.

- كان لأبي الكثير من المفكرات الشبيهة لتلك، لكنه لم يكن يسمح لي بالإطلاع عليها. إلا أني كنت أفعل ذلك خلسة، من باب الفضول. لم أجد فيها ما يثير اهتمامي أبدا، مجرد ملاحظات تتعلق بالعمل، دونت سريعا،

بصيغة مختصرة، وخط شديد البشاعة. كان يسجل في عجالة كما يفعل الصحفيون عادة. لكن تلك المفكرة تختلف تماما.

مددت يدي، لكنها لم ترفع يدها عن المفكرة. كان كفها يرتعش، ونظرها مثبت إلى منتصف المنضدة، كطفل يتظاهر بتلاوة تعويذة سحرية.

- أذكر مساعدته لنا في حزم الأمتعة. أقصد أنه لم يكن ذلك الشخص الخدوم أبدا. لكنه دخل في ذلك اليوم إلى غرفتي، وبدأ يطوي أحد الثياب. فعل ذلك بعناية فائقة، فرده أولًا على الفراش، ومرر كفه عليه لتسويته، ثم جمع أطرافه إلى بعضها وطواه. كرر الخطوات جميعها عدة مرات حتى أخرجه على هيئة مربع تام. ثم التفت يلتمس ثوبًا آخر، لكني أخبرته أن ذلك ليس ضروريًا، وأنه سيخلط أنواع الملابس بعضها ببعض، وأنه يسعني القيام بذلك... ثم انهمكت في مشاغلي متوهمة مغادرته الغرفة. لكنه كان واقفا هناك، إلى جوار الفراش، يرقب كل حركة تصدر عني. سحبت قميصا وناولته إياه فأخذه بلهفة، وامتنان.

عندما أمسكت عن الحديث، كانت الفرصة سانحة لأقول شيئا.

كان يمكنني إخبارها عن ذلك الصباح، حين عادت زوجتي لتجمع أغراضها، مصطحبة رجلًا معها. كان الموقف مزعجًا له أيضا، أخذ يدس يديه في جيوبه ويخرجهما، بينما يقف في الممر، يتجنب النظر إلى أي منَا. وبهذا تمكنت من النظر إليهما. كانت يومئذ أجمل من أي يوم مضى. أما هو، فبدا فحوليًا وقويًا، عريض المنكبين والذقن، تماما كما كنت أحلم أن أكون. كنت أهوى هذا الطراز من الرجال، بينما اعتادت هي التصريح

بزهدها فيه. اتضح لي الآن عدم صدقها؛ أو لعلها - ببساطة - كانت تبحث عن شخص يختلف عني تمامًا. كنت لأفعل الشيء نفسه. دخلت الحجرة وانتظرت. وسمعت من موضعي تهامسهما في الممر، ثم صوت مزلاج الباب يفلت بعد غلق غير محكم.

غادرت الغرفة على مهل، أغلقت الباب خلفهما وأسرعت إلى حجرة النوم لأرى بعيني جانبها في دولاب الملابس خاليًا. إلا أن كثيرًا مما في الشقة كان لم يزل قادر على أن يذكرني بها. منهم - على سبيل المثال - زوجي سراويل داخلية أحببت ارتدائها لهما. كنت أتوقع عودتها يوما ما لجمع متعلقاتها، لذا قمت بإخفاء السراويل. لا أعتبرها سرقة؛ فقد اشتريتهما لها وألححت عليها كي ترتديهما، بينما كانت تتمنع، وتدعي عدم الراحة فيهما. لذا قدرت أنها لن تمانع في احتفاظي بهما. وإن كنت تهوى سماع الاعترافات؛ فنعم، أعرف أني خبيث، وبائس، وأناني، وجبان... تمامًا كأي بطل عصري. راودتني في تلك الفترة الشكوك حيال صحتي الجنسية، فقد صرت لا أنظر للنساء - أيًا كانت درجة جمالهن - إلا في عيونهن. غير أن تخيلي جسد زوجتي باستمرار طمأنني. حاولت استحضار كل لقاءاتنا الجنسية، كي تنطبع كل حركة، وشهقة، واختلاجة، وحتى أدنى الانحناءات والالتواءات عميقًا في الذاكرة. لكني - رغم محاولاتي المضنية - لم أستطع سوى تذكر القليل من الأحداث الوجيزة؛ أنف مشدودة مرة، وإزاحة خصلات شعر عن الجبين مرتين، وشهقات ثلاث، وأنين واحد استثنائي الجمال...

لم أقص - بالتأكيد - أيًا من ذلك على «ميرنا»، وإنما قلت:

- كان «أليكسا» شخصًا جيدًا.

ندمت - على الفور - لاستعمالي الفعل الماضي. فأردفت بسرعة:

- هلا تناولنا بعض النبيذ؟ لابد أن حرارته أصبحت الآن كحرارة الغرفة.

هزت رأسها علامة على الرفض.

- لا وقت لذلك. يتوجب علي المغادرة، كما يتوجب عليك القراءة.

رفعت يدها عن المفكرة. وعلى الغلاف الجلدي كان الأثر المبلل لكفها واضحًا. غادرت كرسيها لترتدي سترتها وانتفضت واقفًا، كمجند لحظة دخول ضابط للحجرة.

قالت، بينما تعدل من هندامها:

- سأعود غدًا. اقرأ المفكرة، من فضلك. لن تجد الكلام كثيرا... بعدها سيكون الحديث ممكنًا.

مع عودتي إلى الغرفة، بلغت أسطوانة الموسيقى نهايتها. شعرت برغبة مفاجئة في الاستلقاء على الفراش والنوم لمدة شهرين على الأقل، لكن المفكرة كانت على المنضدة تنتظر. بدا لي كأنها صارت مركز الشقة كلها، وأن رؤيتها كانت حتمية من أي الزوايا نظرت. فتحتها على مهل، كأنما أخاف احتوائها على «عفريت العلبة». لكني أدركت - لما فتحتها - أنها لم تكن مفكرة صحفي أبدًا: وجدت صفوفًا من الجمل المهندمة، تفصل بينهم مسافات متماثلة، تكاد هيئة الكتابة أن تكون أكاديمية. يمكنك رؤية ذلك بنفسك... عندما تناولت المفكرة كانت أولى الصفحات فارغة. وتبدأ الثانية بتاريخ...

١٠ يوليو ١٩٩٣

في كل مرة أهبط فيها حفرة التعدين مع العمال، أتخيل ما قد يحدث لو أن حبال الرافعة انحلت. وقد استشعر العمال خوفي. فوضع أحدهم يده على كتفي مرة يريد مواساتي. يوجد بين زملاء المهنة أشخاص رائعون. بنسبة أعلى من سائر المهن، أو هكذا بدا لي.

بلغ القلق ذروته بالأمس. كانت يداي ترتعشان، وفمي جاف تمامًا. وانشق باطن الخدين عن أخاديد كبيرة لم يستطع ترطيبها اللعاب. أصدرت الرافعة صريرًا معدنيا مع بداية حركتها، يشبه طقطقة بندقية من طراز «ماوزر» اليوغوسلافي. كان العمال من حولي يتنفسون عبر مناخرهم بصوت مزعج.

بدأ الأمر فور مغادرتنا الرافعة. كان الصوت أول ما أثار رعبنا. هسيس خافت جاء من آخر السرداب. نظرت إلى العمال؛ كان وجه «رجب» أحمر اللون، بينما أحاط «إبراهيم» رأسه بيديه جزعا، أما عينا «كيلي» فكانتا مفتوحتين على مصراعيهما بينما يعض على شفته السفلى. أصغينا السمع - صار الهسيس جعجعة، ثم سمعنا ضربات على الأرضية، كتساقط أمطار غزيرة. وخيل إلي أن بساطا رماديا نحيلا راح يتمدد في الظلام متموجا. لكن الصواب جانبني هذه المرة: كانوا جرذانا! آلاف من الجرذان. وبدا لي أن مزيدا من الجرذان راحت تقفز من على جانبي السرداب، ومن بين العوارض الخشبية، ومن السقف، ومن كل الفتحات، تنضم إلى الحشود التي تصطدم بأرجلنا. كانت مخالبها تخدش الأحذية المطاطية ذات الرقبة العالية؛ وتضرب ذيولها أرجلنا

كالسياط. صدقني، كان ذلك بشعا. صرخ أحد العمال - ربما كان «رجب» - يستنجد بربه، بينما صاح «كيلي» عاليا:

- إنه الجحيم أتى ليلتهمنا جميعا!

أعتذر عن العبارة، لكنما أروي الوقائع بالضبط كما جرت، ليسهل تصورها على هيئتها الصحيحة.

كانت الأطر الخشبية للنوافذ تطقطق كأنها تحترق. وشعرنا بالأرض تميد بنا، وفي باطنها أخذ شيء ما يستعر، هناك، على عمق تحت أقدامنا. كان كل شيء يهتز في غضب شديد. بدا لي كأنما يد هائلة قبضت على السرداب وأخذت تهزه كعلبة ثقاب. كان أمرا مروعا. ثم سرى هدير مرعب خلال الأرض وانطفأت المصابيح جميعها. أخذ كل ما يحيط بنا يتداعى. شعرت بكتلة ثقيلة تسقط على كتفي فتطرحني أرضا. وسمعت أحدهم يصرخ. صوت غريب، بدله الخوف أو الألم تماما، صرخ مناديا:

- يا مريم العذراء!

صاح الرجال مستنجدين، كان أمرا بشعا. ما الذي يملك المرء فعله حيال خطر يفوق قدرته أضعافا، إلا التماس المساعدة كما الطفل؟ وفجأة، سكت الضجيج الصادر عن باطن الأرض. عاد العالم ساكنا مرة أخرى. كنت ممددا على التراب في الظلمة. إلا أني - ولحسن الحظ - لم أكن وحيدا؛ كان يمكنني سماع الآخرين حولي. كانوا يتلون الصلوات. يتلونها بعجالة، كأنهم يخشون ألا يسعفهم الوقت لإكمالها. أرادوا حشر أكبر عدد من الكلمات في النفس الواحد؛ ثم معاودة الاستنشاق وتكرار

الأمر. فكرت في مشاركتهم، لكني لا أعرف كلمة واحدة من صلواتهم الإسلامية. كما لا أعرف أي صلاة أخرى. لم أتمكن من تذكر شيء سوى "اللهم ساعدني". لكني لم أرغب في الجهر بطلب المساعدة، خشية إفساد تناغم صلواتهم، وإبطال السحر الذي يحاولون صنعه. لطالما كنت ملحدا، إلا أن سؤالا - أثناء تلك الظلمة والرعب واليأس - خطر ببالي: ماذا لو كان الرب موجودا بالفعل، ماذا لو كان يستطيع المساعدة حقا؟ في نفس اللحظة، فكرت أنه لو كان موجودا، ولو أنه كان خالقي، لأدرك السبب الذي دفعني لذلك. كان ليدرك أني ما فعلت ذلك إلا خوفا من الموت، وما فعلته تبجيلا أو امتنانا. لو كان موجودا، لوجدني حينها مقيتا. بل لرغب في سحقي. كان هذا بالضبط ما جال بخاطري، وعليك أن تتفهم أني لم أكن ساعتها في حالتي الطبيعية.

بعد ذلك، سمعت وقع حوافر خيل قادمة من الظلام. وبينما صوت الحوافر يعلو ويعلو، سمعت أصوات الصهيل أيضا. ثم تسارع الوقع فصار عدوا. وأحسست حينئذ أن عشرة خيول -على الأقل- تتجه نحوي. كنت أجهل ما يتوجب علي فعله، لم أكن أستطع الحركة، فقد كانت الصخور تتساقط من حولي، بينما تسمرني إلى الأرض عارضة خشبية ثقيلة. أظنني صرخت، عاليا. وفجأة، توقف العدو، بالضبط كشريط تسجيل أصابه عطب أثناء بث إذاعي. وسرى ضوء خلال الظلام. أنار لي في البدء كفيّا. رأيتهما أمامي ممدودتان كأنما أحمل فيهما طفلي. وأبصرت في آخر السرداب هالة نور تامة الاستدارة، كتلك التي تراها في المسارح. لم أميز في أول الأمر سوى ظلال. ثم صار المشهد واضحا. كم كان رائعا! يقف في قلب الضوء رجل نحيف، طويل، يرتدي معطفا

أخضرا مديدا، ولمعطفه ذلك ياقة ضخمة دائرية وأزرار سوداء بحجم قبضة عامل منجم. كان شعره أسودا كثيفا، يلمع كالفحم. وجهه أبيض كوجوه ممثلي مسرح «البانتوميم»، وأنفه نحيل، وتخلو عيناه من أي بياض، رأيت ذلك بوضوح، فما كانتا إلا كرتين صغيرتين سوداوين. ولما انحنى لي، صرخت، فقد انقسم جسده عند مستوى صدره إلى جزأين. حاول تهدئتي بابتسامة وإيماءة رأس دمثة؛ كان يمكنه رؤيتي أرتجف خوفا بينما تسري قشعريرة ما عبر جسدي. مد إلي يده اليمنى، رغم استحالة بلوغي، فقد كانت تفصل بيننا عشرة من الأمتار تقريبا. وبالرغم من ذلك، أحسست براحته على جبهتي. كانت لطيفة، ودافئة؛ توقفت فورا عن الارتعاش، وجرت في جسدي وخزات عذبة، تتبع نفس المسار الذي تجري فيه الدماء. فنظرت إليه، بنظرة امتنان على ما أعتقد، لكن ابتسامته انمحت وزم شفتيه، ثم عبس وصاح:

- "جلوك أوف"*!

سمعته بوضوح، وأقول لك إني وجدت صوته عذبا. لم يسعفني ذهني برد مناسب، وأمال الرجل الأخضر رأسه ناحية كتفه الأيسر ورمقني بفضول. كانت له نظرة طفل: بريئة، كأنما ينتظر شيئا، وكنت أجهل ماهية هذا الشيء. ابتسم ثانية، وثانية أمال رأسه؛ بينما أشعة الضوء من حوله ينقلب لونها للأحمر. صار خيالا، كجندي على رقعة الشطرنج، ثم اختفى. هكذا. كأنه ما وجد على تلك الأرض أبدا. عادت

---

* «Glück auf» جلوك أوف: تحية تقليدية لعمال المناجم في ألمانيا والدول المجاورة. وهو دعاء من العامل لصاحبه، بأن يحالفه الحظ في العثور على أطنان وأطنان من الذهب المخبوء. - المترجم

الصلوات مسموعة مرة أخرى. لا أتذكر سماعي لها، أكان أثناء الرؤية أم بعدها فقط. وشرعت أتكلم، فقلت:

- أيها الرجال.

لكن أحدا لم يسمعني، وإنما ازداد صوت الصلوات علوا فقط. ناديت مرة أخرى، وأخرى، دونما جدوى. لكن ما أن كففت عن النداء، حتى أطل نور. كم كان ذلك مبهجا! كان النور يخرج من بين ركام الصخور والأرض. سمعنا أصوات منقذينا. وأبصرت الرفاق حولي. رفع «رجب» رأسه، فرأيت الدمع يتلألأ في عينيه. صاحوا سعداء، وقبلوا بعضهم البعض، وبكوا. حدث هذا بالطبع: فكم كان ذلك مبهجا. الغوث! سألتهم لو رأوا الرجل الأخضر. كررت السؤال، لكنهم اكتفوا باحتضاني وتقبيلي. كانوا جميعا يحتفلون.

مرت تلك الحادثة بخير؛ أصبت بكدمة على كتفي، وانكسر ذراع «كيلي»، وعانى الآخرون من مجرد صدمة. لم تكن - في نهاية الأمر - شيئا جللا.

في العيادة، قال لي «رجب إيسريفا ذوكيتش»، أكبر عمال المنجم سنا:

- لقد رأيت «بيركمان».

ولما رأى دهشتي، فسر لي «رجب» الأمر بأني رأيت جنيا، فسألته عن ماهية الجن، فأجابني بأنه كائن خارق، ثم كرر تلك الكلمة: «بيركمان». قال «رجب» إن والده، وجده، أخبراه بأن لـ«بيركمان» وظيفتين: إما أن

يقودك للذهب أو أن ينذرك حادثة. ثم سألني عن التوقيت الذي ظهر فيه «بيركمان»، وبمجرد الإجابة، قال إن ذلك سلوك غريب بالنسبة للجني. فقد ظهر «بيركمان» متأخرا؛ بعد وقوع المصيبة بالفعل.

نصحني في النهاية بتوخي الحذر، وعندما استفسرت عما يتوجب علي الحذر منه، حدد ما يقصده بالحوادث، فإنما جاء «بيركمان» - ولا شك - ليحذرني واحدة. إن «رجب» لرجل طيب. فقير، وعامل منجم حقيقي. دائما ما يكون هؤلاء الذين يكسبون قوتهم من عمل أيديهم، أفضل من البقية.

١١ يوليو ١٩٩٣

تحاشيت كتابة المذكرات طوال حياتي. هذا شيء لا أقدر عليه. كما كنت أخشى أن تسبب لي تلك الصفحات الحزن عند الكبر، فسيبدو لي حينها أني أضعت الحياة هباء. لذا قدرت أن تذكر أيامي التي قضيتها بالطريقة التي تروق لي أفضل، وليتولى الحنين إلى الماضي مهمة تجميلها. لكن الآن، ولأول مرة في حياتي، يحدث لي شيء غريب. شيء يستحق التدوين.

يتوجب علي تسجيل تلك الحادثة. هي أولى تجاربي مع خوارق الطبيعة. لذا تقتضي الحكمة تسجيلها، ثم التفكر فيها بتأني وروية. قرأت مرة كيف كانت الساحرات تعتنين بالمجلدات التي تسمينها «كتب الأرواح»، والتي يلزم كون غلافها أسود، وأن تكتب بخط يد المؤلف ذاته. ولا شك أن مفكرتي هذه تستوفي الشروط.

لم يبقى في المدينة كثير ممن يمكنني إخبارهم بأمر اللقاء العجيب. لا أستطيع الحديث مع أي شخص عن «بيركمان». فربما ظن بي الجنون؛ وهو ما يحدث بالفعل، حتى صارت نظرات الناس لي غريبة. لكن يمكنني إخبار «أحمد»، فهو مؤمن بتلك الأشياء مصدقا لها.

ستصدقني عزيزتي «أنجيلا»؛ بل وقد تفسر لي بعض الأشياء. تجيد «أنجيلا» تهدئتي. كذا ستستمع لي «ميرنا» - بالطبع - وتستوعب كل كلماتي. ورغم مرور زمن طويل، إلا أنه يخيل إلي أنهما ما يزالا هنا. أن الباب سيفتح في أي لحظة. كثيرا ما أفكر بتلك الطريقة. يتوجب علي ذلك، فالتفكير بالوحدة أمر عسير. أوحيد أنا حقا؟

عين اليوم محرر جديد في محطة الإذاعة. لا أعرف ذلك الشاب، لكنه بدا لي جدير بالاحترام. منحني عشرة أيام إجازة، كي أزيل وطأة الحادثة عن ذهني. وبينما يتحدث، كان دوي المدافع يعبر النافذة المفتوحة ويطرق مسامعي، قادما من بعيد.

١٢ يوليو ١٩٩٣

تفهم «أحمد» كل شيء. جلسنا في مكتبه، داخل مكتبة المدينة التي يديرها منذ عشرين سنة. وعلى مدار تلك السنوات، وعلى نفس المنضدة، مارسنا لعبة الشطرنج واحتسينا الشراب. لم نزل نلعب أحيانا، لكن من دون شراب هذه المرة، بسبب الحرب، والفقر. إلا أننا الآن - ولتلك الأسباب - نلعب بشغف أشد من أي وقت مضى! نلعب كي نهرب من العالم. يريح منطق الشطرنج الآمن أعصابنا. ويبدو لي أني بدأت - أخيرا - في فهم اللعبة على وجهها الأمثل. لم أعد أنظر إلى القطع مفردة؛ صرت قادرا على النظر إلى الرقعة كما لو كانت هي العالم، كسلسلة لا نهائية من الاحتمالات. ومنذ استيعابي ذلك، صرت أهزم «أحمد» باستمرار.

عندما أخبرته بما حدث في المنجم، لم يطرح أية أسئلة. أخبرني فقط ألا أقلق، فرغم صحة ما يروى عن تنبؤ «بيركمان» بالمصائب، إلا أن تفادي تلك المصائب ممكنا، إن أنا أخذت التحذير مأخذ الجد واتبعت نصيحته جيدا.

كذلك أخبرني «أحمد» بأن لقائي «ببِركمان» سيتكرر ثانية. وعندما يحدث هذا، فإن رد التحية وطرح أي سؤال أشاء سيكون أمرا كافيا.

ثم أخرج من خزانته - حيث يحتفظ بكتبه الشخصية - ملزمة ورقية تم نسخها آليا تحمل عنوان «أوراق من ندوة التعدين والمعادن في البوسنة والهرسك من عصور ما قبل التاريخ وحتى بداية القرن العشرين»، وقال:

- أعتقد أنك ستجد بعض الإجابات هنا.

كانت تلك نصيحته، قبل أن يبدأ ترتيب قطع الشطرنج على الرقعة بهدوء.

تمتد علاقتي بـ«أحمد» لزمن طويل، دهر بأكمله، إلا أن مفاجئاته لي لا تنتهي.

١٣ يوليو ١٩٩٣

قرأت ملزمة «أحمد» الورقية. جاء في فصل «عن أصول الإيمان بـ«بيركمان»، شبح حفرة التعدين، في بلادنا»، على لسان «فلايكو بالاميسترا» أن اعتقاد ما يسود في القرى المحيطة بمناجم البوسنة، يتعلق بوجود رجل وحشي، عملاق منجم، «بيرجمايستر»، وهو ما يعرف في معظم الأحيان بـ«بيركمان».

وثق الدكتور «بالاميسترا» شهادات لعدة عمال مناجم. أشار عجوز في «كريشيفو» إلى أن أصل «بيركمان» يرجع إلى شبح رجل طيب. "يأتي شبح عامل المنجم المقتول تلك لتساعدنا، وتجعل تكسير المعادن أكثر سهولة".

روى العامل «يوري جلافوتشيفيك» تجربته في عام ١٩٠٩. سأنقلها بالضبط كما دونت:

"خرجنا في ساعة راحة خلال إحدى الليالي. ونسينا أحد الأغراض هناك في موقع العمل، واضطررت لكوني الأصغر سنا أن أذهب لإحضاره. لكني لما دخلت حفرة التعدين سمعت صوت فرقعة. فركضت خارجا، وأخبرني عامل عجوز بحدوث الشيء نفسه معه. ثم نزلت حفرة التعدين، وهناك وجدت رجلا برداء أخضر يقف بين خطوط القضبان، يمد يده يريد أخذ مصباحي. لكن العجائز حذروني - حال مقابلتي أحدهم - من إعطائه شيئا بيدي. فوضعت المصباح على الأرض، وتناوله هو، أما أنا فتجمدت في مكاني. ثم تسلق هيكل الحفرة؛ ونظر إلي كل ما حوله، ووضع المصباح على الأرض واختفى. قال المديرون لاحقا: ستغلق حفرة التعدين! وفي اليوم التالي

دمر كل شيء، تم تدمير المنجم بأكمله. يطلقون على هذا الرجل اسم «رجل الأرض»، أما نحن فندعوه «بيركمان»".

١٤ يوليو ١٩٩٣

سمعت خلال سيري اليوم شيئا كان ليفوتني بسهولة: سمعت أنهم يعذبون الناس في مدرسة الموسيقى. أجد ذلك صعب التصديق. قالوا في بداية الحرب أن معسكرا للأسرى الصربيين تم بناءه في استاد كرة القدم، لكن سرعان ما تبين كذب ذلك. الأكاذيب كثيرة؛ ومن الصعب تمييز الحقائق من بينها.

تقع مدرسة الموسيقى قرب المكتبة، إلى جوار المسرح، وفي الناحية الأخرى من الطريق يوجد مقهى المدينة. اعتدت الجلوس هناك كثيرا مع «أنجيلا»، أثناء فترة الإعداد للزواج. تمنيت في إحدى الليالي لو تؤدي الأوركسترا أغنية «أنت تعني الكثير بالنسبة لي، يا عزيزي» لفرقة «ريد كورالس». تمنيت ذلك بشدة لدرجة أني تخيلت المشهد كاملا في ذهني. كدت أقنع نفسي بحدوث ذلك فعلا. لكن النشاز في المشهد التخيلي حررني من الوهم. تخيلت نفسي أرقص مرتديا بذلة سوداء أنيقة، كأحد نبلاء المسلسلات التلفزيونية، بينما ترتدي «أنجيلا» ثوبا أبيض اللون جميلا، وتتكون الأوركسترا كلها من موسيقيين مبتسمين بادية جميع أسنانهم. كانت صورة كاملة الزيف، فأنا أتذكر جيدا، أننا في تلك الفترة، كنا نرتدي جميعا إما بذلة رمادية اللون أو بنية. ناهيك عن أسنان الموسيقيين. هكذا كان الوضع حينذاك. عوز وحرمان. لكن كان هناك - إلى جانب ذلك - جمال أيضا.

لعلها مقارنة مجحفة، إلا أني - ولأسباب مشابهة - أعجز عن تصديق أخبار التعذيب في مدرسة الموسيقى أيضا. إن فكرة الاعتداء

البدني في حجرات التمرين؛ إلى جوار الآلات الموسيقية، أسفل صور المؤلفين؛ بينما الجلاد يؤدي مهمته أمام كتب الموسيقى - فكرة كهذه تجعله مشهدا مبالغ فيه، بل تجعله مزيفا.

وجدت في الملزمة الورقية ذِكْرًا للمعتقد الصربي في «الإمبراطور الفضي» الذي يجلس في قاع المنجم. تقول إحدى الأساطير أنه لما أراد الأتراك الاستيلاء على فضة المنجم كلها، طلب الشبح المساعدة من نهري «دانوب» و«سافا». فأغرقت الأنهار الوادي وبهذا تم إنقاذ الكنز. ووفقا لهذا المعتقد فإن لدى «الإمبراطور الفضي» مساعدين، هما «مانويل» و«داجودين».

١٥ يوليو ١٩٩٣

قدم لمقابلتي رجل محتقن العينين غريب. طرق الباب برقة شديدة حتى كدت ألا أنتبه. وعندما فتحت الباب كان يقف في مواجهتي تماما، محكما غلق ياقة معطفه القطني الأسود حول رقبته النحيفة. شعرت بالخوف لرؤية ذلك الوجه الأصفر، ذو العينين الضخمتين المحتقنتين اللتين حالتا بيني وبين النظر لمعرفة إن كان يمتلك أنفا، أو فما، أو شعرا. خشيت أن تقوم نظرته المباشرة التي وجهها نحو عيني بامتصاصهما. صعدت الدماء إلى وجهي وضاق حلقي. نظر إلي وقال إني لن أكون سعيدا هنا أبدا. وما أن تلفظ بتلك الكلمات حتى استدار على عقبيه وهبط الدرج. أغلقت الباب على الفور لأحجب خياله عن عيني. ورغم ظني حينها أن الكف عن التفكير فيه سيكون عسيرا، إلا أني - ويا للغرابة - نمت ليلتها جيدا.

أصاب الحزن «أحمد»، عندما نقلت له ذلك هاتفيا.

سألت نفسي عما كان يحاول إخباري. هنا؟ أين؟

١٦ يوليو ١٩٩٣

أشار «كارل جوستاف يونج» إلى أن الروح كائن نشط، وسريع، وخفيف، يثير ويلهم. كتب «يونج» أن الروح جوهر فعال يناقض السكون ويسبب حركة المادة. إنه الفارق بين الحياة والموت.

ذكر «مارتن إيبون» في كتابه الصغير «طرد الأرواح الشريرة»، لقاء «يونج» بالأشباح بشكل يومي منذ طفولته فصاعدا. كان أقرب ما يكون من شبح يدعى «فليمون»، وصفه بأن له هيئة شخص عجوز، وقرني ثور وجناحي طائر صغير.

"يشعرني «فليمون» - كسائر الشخصيات في رؤايا - أن في نفسي أشياء لم أخلقها، أشياء ذات حياة مستقلة، تظهر من تلقاء نفسها. يمثل «فليمون» قوى مختلفة عني. وخلال الرؤى تحدثت معه، وأخبرني بما لم أكن أعرف. أدرك جيدا أنه هو من كان يتحدث، وليس أنا".

نقلت ذلك كما كتبه «يونج» بالضبط.

١٧ يوليو ١٩٩٣

استغرقت تجهيزات افتتاح المنجم في مدينتنا فترة طويلة. أعد الجاسوس النمساوي «بوجيتش» حامل لواء الفوج البحري تقريرا عن كمية الفحم في المنطقة. وفي العام ١٨٤١، أجرى السيد «د. ولف» مدير المنجم أبحاثا للتأكد من وجود الفحم في الأرض، لكنه عاد إلى فيينا بعد خلاف مع بقية أعضاء المجموعة. ولم يتم الكشف - حتى اليوم - عن سبب الخلاف. وفي العام ١٨٤٦، وبعد مغادرة السيد «ولف»، أكد البارون «رانسونيت» احتواء الحوض البوسني المركزي على وفرة من مخزون الفحم. وفي العام ١٨٧٩، قام فريق من الجيولوجيين - من بينهم «إي. مويسيلوفيتس»، و«إي. تيتزه»، و«ايه. بيتنه»، والبروفيسور «أويرنيس» برسم أول خريطة جيولوجية للمنطقة.

أخيرا، تم افتتاح المنجم في الخامس من مايو ١٨٨٠، لحساب الشركة النمساوية «كولين إندوستريا فيراين». ليصل استيعابه بحلول العام ١٨٩٥، إلى ٢٩٥ عاملا وست ماكينات بقدرة ٢٠٠ حصان للواحدة، وإنتاج وصل إلى ٦٢٠ ألف طن فحم.

تم إنشاء مستوطنة - أو مستعمرة - بملاصقة المنجم. لتحتوي بحلول عام ١٩٠٥، على ٤٠ من منازل العمال، ومستشفى صغير وحمام جماعي. واستمرت سيطرة الألمان على هذا الكيان زمنا طويلا، فكانت أسماء المديرين الأول كما هي مسجلة: «ريشتر»، و«كاربون»، و«بويخ».

وصلت الآن إلى المدينة دفعة جديدة من اللاجئين. كانت الشاحنات والحافلات والخيل والعربات الموحلة تسير ببطء في الطرقات. لا يتحدث الناس في العربات إلى بعضهم، لاحظت ذلك على الفور؛ كانوا يرمقون المدينة باهتمام صادق. أظنهم أرادوا مقارنة كل طريق، ونافذة، وعابر بما تركوه خلف ظهورهم. أما المارة فكانوا يغضون عنهم أبصارهم.

لاحظت فقدان النوارس كامل ثقتها بالناس. لدرجة صار معها اقترابك لأدنى من خمسة أمتار منها شيئا مستحيلا.

١٨ يوليو ١٩٩٣

أبدا لن أنسى القطيع الوهمي الذي سمعته في المنجم. وجدت تدوينات البارون «رودولف مالديني ويلدونهانسكي» الذي زار منجمنا في عام ١٩٠٠. كان مصير الخيل التي خدمت تحت الأرض أكثر الأشياء تأثيرا فيه. كتب يقول:

"لا يوجد محرك بخاري واحد في أي من مناجم الفحم. تتولى الخيل في الأغلب مهمة نقل الفحم إلى الرافعة، بينما تتولى العمالة ذلك الأمر في البقية، لذا تجد في المناجم كبيرة الحجم مائة من الخيل أو يزيد مخصصة لذلك، تسكن عنابر على عمق ٢٠٠ - ٣٠٠ متر تحت الأرض. ولما كانت هذه الخيول تحيا في درجة حرارة دافئة ومستقرة طوال الوقت، غلب على سلوكها الطاعة والانضباط. لا تصعد الخيل إلى السطح إلا حال عجزها عن أداء وظيفتها، أو عند الاستغناء عنها. دائما ما تتبع تلك الخيول المسار ذاته، لتقوى معرفتها بالطريق. وقد يحدث أن يجد حصانين حرا الحركة في الظلام طريقهما تحت الأرض إلى مكانهما في العنبر من على بعد كيلومترين. إن حرفة التعدين في أعماق الأرض حيث تتعرض الحياة دوما للخطر، لوظيفة شاقة وخطرة. لهذا السبب يحيي العمال بعضهم بعضا قائلين "فليهبنا الرب الحظ الحسن!""

سمعت في حفرة التعدين أرواحا تعسة؛ تلك الخيول الكفيفة! كان هذا العدو الذي تحلم به تلك الوحوش المسكينة في الظلمة الداكنة هو ما أثار فزعي.

١٩ يوليو ١٩٩٣

أخبرني «أحمد» بمعتقد فلكلوري عن اكتساب المنجم شبحا، ومن ثم حارسا، عند مقتل أول عامل فيها. توضع جثة القتيل في حفرة، ثم تدفن وتنسى. ولهذا السبب يهبط العمال الأوائل حفرة التعدين يتلون أقوى الصلوات، بعد انتهاء مراسم الافتتاح الرسمية، أثناء انشغال النسوة بالافتتاح، وتزيين المنجم وإهداء الفطائر والكعك للمهندسين. يهبط العمال وهم يرمقون بعضهم بريبة، ويحاولون التنبؤ أيهم سيموت. هم يعرفون أن ذلك حتمي، ليصبح المنجم آمن للآخرين. وإن لم يتم ذلك، فإن عروق المعدن تنفد سريعا، ويغلق المنجم.

من الواضح أن منجمي قد حصل على قربانه البشري، فالعمل يجري فيه منذ سنوات عدة. وحده المنجم المكشوف تم إغلاقه عقب افتتاحه بفترة وجيزة. وفيه يلقي الفلاحون المحليون الآن بجثث حيواناتهم من هِرَرَة وجِراء نافقة.

٢٠ يوليو ١٩٩٣

في كل يوم تذكرني أشياء جديدة بـ«أنجيلا». غيرت اليوم موضع الفراش فوجدت خلفه جوربا مقلما. لكل قطعة ملابس ارتدتها إحداهما تأثير قوي علي. كالكهرباء تسري في جسدي وتعرض شريط الذكريات أمام عيني. رأيت هذه المرة «أنجيلا» جالسة على الفراش صباحا، ترتدي كعادتها تلك الجوارب على عجلة، بسبب برودة الأرضية الخشبية. ثم تتقافز فيهما إلى الحمام، والمطبخ، بينما أستمع إلى قعقعة الأطباق أثناء تظاهري بالنوم.

تملكني شعور بالوهن، عند انتهاء الفيلم القصير.

انتهى الأمر بالجورب في الصندوق، مع سائر الأشياء التي تستدعي الذكريات. ودفعت الصندوق داخل الخزانة، أسفل الأرفف، إلى جوار الأشياء الأخرى القابعة في انتظار احتياج شخص لها.

٢١ يوليو ١٩٩٣

يحتوي التراث الألماني على قصة عن شبح المناجم، الذي يظهر على هيئة عفريت يعرف باسم «بيرجمان». يتوجب على الناس أن يحيوا «بيرجمان» قائلين "جلوك أوف"؛ وأن يظهروا البهجة ويرقصوا أمام ملكهم، هذا الذي يعين العمال الفقراء على تكسير أكبر كمية ممكنة من الفحم. كما تلزم التقاليد عمال «تورونجيا» البدء بالتحية عند مقابلته، فساعتها يكون «بيرجمان» - في المقابل - كريما معهم. أما سكان «سيليزيا» فيعتقدون بوجوب الإمساك عن رد التحية مهما كان الأمر، فالرد يجلب الأذى لمن تلقى التحية من «بيرجمان»، وللمجموعة بأسرها.

لست متأكدا من كونه حلما، لكنها - «أنجيلا» - جلست جواري في الليلة الماضية. كانت حزينة، أخشى أن مكروها قد وقع. تسلمت آخر رسالة منهما قبل ستة أشهر بالتمام. لم تذكر ورقة الصليب الأحمر شيئا سوى سلامتهما وانتقالهما أخيرا لشقة سكنية. أضافتا عنوانهما الجديد وطلبتا مني مراسلتهما في أقرب فرصة. حاولت ذلك، وأرسلت الرسائل مع من يغادرون المدينة، لكني لم أتسلم أي رد منهما. أشعر بالخوف. لا أدري الشيء الذي أخافه تحديدا، لكنني خائف حقا.

إذا ما قابلت «بيركمان» أو «بيرجمان» ثانية، أيا كان اسمه، فسأطلب منه إخباري بحالهما. غدا سأحاول نزول حفرة التعدين.

٢٢ يوليو ١٩٩٣

أعلنت في اجتماع المحررين عن إعدادي لقصة كبيرة ذات صلة بالمنجم. تشجع المحرر الجديد للفكرة، مشيدا بما يقدمه وهم استقرار الصناعة من أثر معنوي جيد على سكان المدينة والجنود. من أجل ذلك قام بتحريري من جميع التزاماتي الأخرى مع الإذاعة.

غير أني لم أنجح في دخول المنجم، فقد رفض المشرف السماح لي بذلك. إنه رجل طيب، اسمه «فيرن»، لكن الجميع ينادونه بـ«النملة». قال إن العمال سترفض حتى الاقتراب من المنجم ما دمت متواجدا في محيطه. شيء فظيع! إلا أني تفهمت سلوك العمال ودوافعهم. فقد كدت أعتاد ذلك. ما أن يبث المذياع نبأ هجمة للجيش الصربي، أو إذا ما لقي أحدهم مصرعه بسبب قذيفة، حتى يمسك جيراني عن إلقاء التحية في الممر، ويسود المكتب صمت مفاجئ ساعة دخولي. لكني لم ألحظ شيئا من هذا مع العمال من قبل. حتى أنهم اعتادوا مناداتي بـ«الزعيم». سألت «النملة» عن سبب التغير. قال إن نبأ رؤيتي الشبح المنذر بالسوء بلغهم، لذا يخشى العمال وقوع كارثة إن أنا دخلت المنجم معهم.

تأسف «النملة»، وطمأنني بأن تخطي تلك المخاوف سيأتي تدريجيا، فاستدرت دونما التفوه بكلمة، وغادرت. لكني أدرك ضرورة مقابلة «بيركمان» ثانية، كي أوقن أن الأولى لم تكن حلما. يجب أن أتحدث معه.

عثرت في المكتبة على «مدخل إلى علم الشياطين». أظنني نجحت في التوصل إلى أصل «بيركمان» منه. إنه «عنصري»، شبح أو عفريت: قزم دميم يحرس كنوز العالم السفلي.

يذكر الكتاب اعتقاد «باراسيلسوس» أن الأرض يحكمها «عنصريين»: كائنات أسطورية تسيطر على العناصر. فيسيطر الجان على النار، و«الأونديناتِ» على الماء، بينما تحكم العفاريت الأرض. كما حذر «باراسيلسوس» من الخلط بين العنصريين والشياطين، مشيرا إلى ما اكتسبه العرَّافون خلالهم، من معلومات قيمة، خاصة ما يتعلق بخصائص العناصر.[4]

في الليلة الماضية، تركت كوبا ممتلئ بالماء على الطاولة الصغيرة بجوار الفراش. وجدته هذا الصباح فارغا.

---

[4] درس «باراسيلسوس» ظهورات العنصريين، إضافة إلى نشوء حوريات البحر. كما سجل زياراته لمناجم من إقليم «لابي» إلى «أثيوبيا»، ومن مدينة «سلامنكا» إلى «موسكو»، حيث نزل في الأخيرة ضيفا على قيصر روسيا. وجاب «المجر» مرتحلا مع جماعة من الغجر، وزار «سين» في «كرواتيا». كما حاول «باراسيلسوس» صنع مرآة سحرية - مكونة من سبعة معادن، شكلوا بعد صهرهم «إليكترون»، وهو معدن لا يوجد إلا في الجحيم. اعتقد «باراسيلسوس» إمكانية تشخيص كل الأمراض باستخدام هذا المعدن، حيث تعرض المرآة لكل مريض، دائه ودوائه.

٢٣ يوليو ١٩٩٣

أريد لجثتي أن تحرق عند وفاتي. وليصعدوا بعدها أعلى بنايات المدينة ولينتظروا الريح ثم لينثروا رفاتي. لا أريد المكوث في الأرض. لا أريد وضع اسمي على أي من شواهد القبر. لقد نلت من هذا المكان كفايتي. لا أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. يثير الأمر برمته داخلي رغبة في التقيؤ. أريد أن أختفي، أن أنسى. وهذا هو السبيل الأمثل. فما المغزى من شقاءنا جميعا؟

جلست «أنجيلا» مرة أخرى على فراشي، فوق الوسادة تماما. سمعت صوت أنفاسها واستنشقت عطرها. لكني تظاهرت بالنوم، مخافة أن تختفي ثانية. إلا أن النوم - ولسوء الحظ - غلبني في النهاية.

كان الصباح أبيضا، وسببت أشعة الشمس القوية لعيني الألم.

٢٤ يوليو ١٩٩٣

زارني الرجل ذو العينين المحتقنتين ثانية. وتماما كما الأولى، وقف في مواجهة الباب وقال:

- أنت لن تكون سعيدا هنا، أبدا.

وبعد أن قالها، فتح عينيه على اتساعهما، واستدار، ورفع يده يشير بإصبع نحيل إلى شخص ضئيل يستند إلى درابزين السلم. أبصرت فتاة صغيرة، تبلغ من العمر ١٢ سنة في الأغلب. رأيتها لفترة وجيزة، ظهرها في مواجهتي. كانت شقراء تربط شعرها على هيئة ذيل حصان. لكنها هبطت الدرج بسرعة. سألت الرجل عنها، من تكون.

رفع بصره إلى مستوى جبهتي، فرأيت فمه الصغير. ثم انفتح فمه، وتنفس، كأنما يهم بإخباري. ثم ابتعد، كما لو أن شخصا ما جذبه من يده وأبعده عن الباب. واستدار سريعا يقفز الدرج مغادرا.

يعتقد المسلمون أن الجن كائنات من بخار أو نار، يمكنها الظهور على صور مختلفة. خلقت من نار بلا دخان، بينما خلق البشر والملائكة من الطين والنور. كما يعتقدون أن الخلاص ممكن للجن أيضا، وأن نبي الإسلام محمد كان مرسلا إليهم كما كان مرسلا للبشر العاديين.

فمن الجن من سيدخل الجنة، ومنهم من سيدخل النار. كما تزعم مدارس الشريعة أن الذي يلقى حتفه من أثر خطيئة مميتة، يمكن أن يتحول إلى جني.

٢٥ يوليو ١٩٩٣

لا يهاب الأطفال الموت. رأيت اليوم مجموعة من الأطفال يستشرفون بطيش سور لهاوية على نهر، بينما تطفو في الأسفل على المياه الضحلة جثة رجل تتحرك ذهابا وإيابا. كان له ساقا مبتورة من عند الركبة، والعروق الزرقاء بارزة من بين لحم ساقه العاري. تعلقت الطحالب المائية وأعقاب السجائر واشتبكت بشعر صدره وما حول عورته. يصيح الأطفال "رجل ميت! رجل ميت، رجل ميت!" حتى أنهم يشيرون للمارة بأيديهم الصغيرة ليتبينوا أعينهم. ويظهر عليهم الارتياح إذا ما استطاعوا رؤية الفزع - أو حتى الأسى - فيها. تجمَّع رجال الشرطة عند الشاطئ، يغطون أفواههم بالمناديل. وقام الأطفال بمحاكاتهم، رغم عجز الرائحة - غالبا - عن بلوغ ذلك السور البعيد. يدير البالغون وجوههم عند رؤية الجثة، ثم يختلسوا النظر من فوق أكتافهم؛ لكن الأطفال يبقون عيونهم مفتوحة على اتساعها. وحتى بعد انتشال خفر السواحل للجثة ومغادرتهم، لم يترك الأطفال الجسر. ولما نادتهم الأمهات من النوافذ، أجابوا:

- اتركونا قليلا، قليلا من الوقت فقط، الظلام لم يحن بعد، كما أننا بدأنا اللعب للتو.

٢٦ يوليو ١٩٩٣

يوم غير عادي. قابلت فتاة صغيرة، وجميلة. أحضرها «أحمد» إلى المكتبة أثناء تصفحي لأرشيفات الصحف المحلية. قال إن لديها قصة تهمني. كانت خجلى، يكسو اللون الأحمر خدّيها. لكن هذا لم يجعلها بأي حال من الأحوال قبيحة؛ بل كانت حمرة فاتنة ونابضة بالحياة.

أخبرتنا أن جدها كان يسكن مدينة «إف» الصغيرة، حيث كانت تقضى العطلات الدراسية في معظم الأحيان. كان عامل تعدين عجوز، اعتاد أن يهيئها للنوم بحكايات عن الزمن الذي كان فيه الذهب يملأ المنجم. حكى لها الجد توافد مئات من «بيركمان» على المنجم، ساعة كان الذهب وفيرا، وكيف أنهم تحدثوا إلى العمال وساعدوهم. طرقهم على الأرض ثلاثا يعني أن الكشف عن ذهب جديد صار وشيكا. وتعني الأربع طرقات أن حدثا سيئا اقترب وقوعه، فيتوجب على العمال حينئذ المغادرة سريعا. لكن مع انحسار الذهب المستمر، أخذت رؤية «بيركمان» في المنجم تندر بالتدريج. ولم يتبقى غير واحد، ولما كان مدمن خمر، سكب العاملون البراندي المحلي الصنع على الأرض تحية له.

بينما الفتاة تتحدث، شعرت برغبة في احتضانها، وشكرها. كانت ما تزال شابة يتلألأ الكون من حولها. وبما أن كائن نوراني كهذا يهتم بالأرواح ساكنة المناجم، إذا فبحثي ليس غريبا، أو أخرقا. إذا فلست وحدي. لكن ما أن أنهت قصتها، حتى أخبرتنا بضرورة مغادرتها، حيث ترحل عن المدينة غدا. راقبتها و«أحمد» تغادر المكتبة؛ مستندين إلى ألواح المناضد الخشبية، شاعرين بالبرودة في منتصف الصيف.

٢٧ يوليو ١٩٩٣

كتب «بيرجيير» عن الشياطين التي كشفت عن نفسها لعلماء النهضة، والكابالا اليهود، ومتصوفة الإسلام. أطلق عليهم «كائنات النور»، وذكر أن أغلب ظهورهم جاء في القرون الأولى التي تلت نشأة المسيحية، وأنهم عاودوا الظهور للبشر بعد فترة توقف طويلة، مع نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر. يعتقد «بيرجيير» أن «كائنات النور» هي من أشعل النيران أثناء طاعون لندن العظيم، كي لا يمتد الوباء إلى سائر العالم.

أشمئز من نفسي إذا ما لاحظت جمالا أنثويا. أعتبر كل نظرة من تلك بمثابة خيانة لجميلتي الوحيدتين، «أنجيلا» و«ميرنا». سمعت أن الناس تكتشف في نفسها شهوات جديدة خلال الحروب، وأن رهبة الموت مثير جنسي قوي. لا أنظر للنساء إلا في عيونهن. لا شيء آخر يجذبني.

٢٨ يوليو ١٩٩٣

خلق الله العالم بحيث يكون ممتعا بالنسبة لطفل ذكي في السابعة من عمره. ذلك ما قاله لي «أحمد» لدى مغادرتي مكتبه.

أجد الصباح أكثر ما صنع الله إتقانا. لطالما أحببت الصباح! أحببت شرب القهوة مع «أنجيلا» وترتيب مسار اليوم، بينما الصباح يتسلل إلى الحجرة. أحببت كل حواراتنا. أحببت حركة أصابعها البسيطة حول الفنجان. لا يستلزم الأمر غير العطور، دقات الساعة، الأخبار في المذياع... ويسترخي كامل جسدي. يمكنني البقاء معها وحدنا لأيام، معها ومع الطفلة في الحجرة الصغيرة. اعتدت إخبارها بأن السجن ذاته لن يكون صعبا ما دمنا معا. فكما يقولون، العشاق الصادقون،لا يضيق بهم بيت أبدا.

أما الآن، فلم يعد للصباح معنى. أتصور أن الجمال فيه باق ما يزال، لكني أمسيت عاجزا عن ملاحظته.

٣٠ يوليو ١٩٩٣

وجدت في مفكرة ما قائمة بمخاوفي القديمة. كتبتها منذ سنوات عدة، لا لسبب إلا قراءتي في جريدة يومية لأحد علماء النفس ينبه على كون أهم خطوات محاربة المخاوف هي الاعتراف بوجودها. هذا وتتضمن قائمتي مخاوف سبعة:

الخوف من الموت؛

الخوف من المرض؛

الخوف من الفقر؛

الخوف من الزواحف؛

الخوف من مساحات الماء الواسعة؛

الخوف من الارتفاعات؛

الخوف من أن أدفن حيا.

•

لاحظت أثناء قراءتي للقائمة، أني عالجت جميع مخاوفي، عدا واحدة، هي تلك الأخيرة - الخوف من أن أدفن حيا. يزعم علماء الأنثروبولوجي أن هذا النوع من المخاوف لم يظهر إلا في القرن الثامن عشر، وأنه أول ما تم إقراره طبيا من المخاوف المتعلقة بالموت. قام الأطباء في منتصف

القرن الثامن عشر بإدخال الإبر تحت أظافر الموتى، وحشر الأقلام الرصاص في أنوفهم، ووضع روث الخيل والبول والعقاقير المسببة للعطاس تحت أنوفهم. قاموا بكل هذا لتجنب المسئولية عن الاستيقاظ البشع لجثة في ظلمة القبر. فـ«شوبان»، و«شوبينهاور»، و«رينوار»، و«أنديرسين»، و«دوستويفسكي»، و«نوبل»، أوصوا جميعهم بقطع شرايينهم قبل الدفن، لتفادي دفنهم أحياءا.[5]

اليوم أضفت خوفا جديدا - الخوف من الوحدة.

أشعر بالخوف. كان عالم النفس هذا مخطئا. فالمخاوف كمصاصي الدماء، تظهر لك عندما تكثر من الحديث عنها.

مكثت ما تبقى من اليوم أفكر في «أنجيلا» و«ميرنا». وما أزال - إلى الآن - أفكر فيهما.

•

[5] قام «مارك توين» بزيارة إلى مستشفى للأموات في «ميونخ»، زبائنها من الموتى الذين خشوا قبل الموت أن يدفنوا أحياءا. وهناك رأى الأجراس مثبتة إلى أصابع أقدام الجثث. وعلى أبواب العنابر تقف ممرضات، تترقبن صدور أي صوت عن «المرضى».

٣١ يوليو ١٩٩٣

وجدت من يستطيع مساعدتي في كل أمر ذي بال: إتاحة فرصة لمقابلة «بيركمان» ثانية، ورؤية «أنجيلا» و«ميرنا». إنهما أخوين مغرورين، إلا أن لهما نفوذ في المدينة. لسنا بأصدقاء، بل سينالا مكافئة سخية نظير المساعدة. آرجو أن أتمكن من جمع مبلغ كافي، فأنا على أتم استعداد لبيع كل ما أملك.

يقول «أحمد» إن الأخوين يذكرانه بيأجوج ومأجوج، الشخصيتان الأسطوريتان اللتان سيعلن ظهورهما مجيء يوم القيامة. تنص بعض الكتابات الإسلامية على أن أصلهما يرجع إلى الإنسان الأول، آدم، حيث نتجا عن منيه الذي سال ليلا وامتزج بالأرض. يذكر التراث كونهما أقوياء يستحيل قتلهما. وقال «أحمد» إن هيئة يأجوج ومأجوج مذكورة: وجهان واسعان كالدروع المصقولة، وعيون صغيرة، وشعر أحمر. وقد كان الأخوين - حقيقة - يبدوان هكذا تماما.

لكن الشيء الذي يخيف «أحمد» هو أن الأخوين ذوي الشعر الأحمر، مجرمين صارا من الأثرياء فجأة بعد اندلاع الحرب.

طمأنته، مشيرا لاحتمال كونهما «مانويل» و«داجودين» الخاصين بي.

١ أغسطس ١٩٩٣

لا أملك الآن كثير من الأشياء القيمة. مجرد كتبي وبضعة لوحات تخلو من أي توقيع لفنان شهير، لذا هي عديمة الجدوى. أشعر بالسعادة الآن لكوني طلبت من «أنجيلا» اصطحاب مجوهراتها معها، فلن أضطر إلى التفكير في بيعهم. أظن حصولي على بعض المال في مقابل أجهزة المنزل الكهربائية أمرا ممكنا، كما ستكون السيارة الفولكس التي أخفيتها عن التعبئة العسكرية في جراج «أحمد» مفيدة أيضا.

طلبت من الدليلين اصطحابي إلى المكان الوحيد حيث مقابلة «بيركمان» ممكنة. بالطبع لم أخبرهما بالسبب وراء ذهابي، ولا هما استفسرا عنه.

سأذهب الليلة. حذراني من التحدث مع أي شخص عن ذلك الأمر. لكني - رغم ذلك - أخبرت «أحمد». لم أتمكن من تركه دونما وداع. قبلنا بعضنا (كما جرت العادة). ثم دسست مفتاح شقتي في يده. ووقف يشاهدني من أعلى درج المكتبة بينما أبتعد. استدرت مطأطأ الرأس وقلت:

- جلوك أوف.

لم يبتسم.



ستحتاج - على أقصى تقدير - ساعة من الزمن، كي تقرأ النص من المفكرة، ببطء، ومع القليل من الوقفات. أما أنا فاستغرقت ليلة بأكملها. كان كتاب أشباح «أليكسا» كالمرآة: شعرت أني أميز فيه نفسي، وهو ما أربكني بشدة. شعرت بنفس مخاوف «أليكسا»، ونفس الشوق، ونفس الخواء، والوحدة، والاكتئاب... أثق في قدرتك على تفهم ما مثلته لي القراءة عن الرجل ذي العينين الكبيرتين، والأرواح سواء كانت أرضية أو لا أرضية... أذكر أن الصديري الخاص بي كان مبتلا بالعرق تماما، لزج وكثيف، كالعسل عندما يغطي البقلاوة. كنت خائفا، وقلقا، ومصدوما، وحزينا، وفضولي، ومهتاج... من الواضح أن المواضيع الخطيرة كتلك تعتصرني، فتهيج معدتي، ويهاجمني صداع عند منتصف جمجمتي، ثم ينتشر مصنفرا العظام واللحم. لم تتبقى في الشقة أية أقراص كافيين لعلاج الصداع؛ فقد استنفدت مخزوني خلال الأشهر التسعة الأخيرة. وحدها تلك الأقراص يمكنها إخماد الصداع، مجرد نظرة لغلافها الذهبي كفيلة بخلق شعور بالاسترخاء داخلي.

وضعت رأسي بين كفي، بحرص، كأنها لا تخصني. وجلست أنتظر «ميرنا». شعرت بنفسي عاري وسط عاصفة جليدية. كوالد في غرفة انتظار قسم الولادة. كشخص يسدد ضربة جزاء حاسمة. كرجل يترقب شبحا.

توقف الجليد عن السقوط في الخارج.

أصغيت. مجرد صمت. صمت تام. لم أتمكن حتى من سماع أبسط الأصوات. حتى الثلاجة لا أسمع لها صوتا. كانت الحوائط ساكنة: جوانب الصندوق الست كلها. كما لو أن الشقة هناك، في الفضاء، أو تحت الأرض، لا في مبنى متعدد الطوابق، بحوائط من الورق المقوى، وأنابيب مياه مسدودة، ومصعد ميكانيكي مزعج... كما لو لم أكن محشورا في مبنى ذي ثمانية عشرة طابق، في كل طابق أربع شقق، تمتلئ كل واحدة منها بالبشر. لو أن شققا كهذه وزعت على منازل صغيرة ثم وضعت في حقل، إلى جوار مجرى مائي، قرب غابة، أسفل بعض التلال، لكونت قرية ذات حدود جديرة بالاحترام، والتي كانت لتستحق نقطة على الخريطة الجغرافية. يمكن لسكان المبنى متعدد الطوابق الخاص بي، أن يكون لهم في قريتهم من التقاليد ما هو خاص بهم، فيحتفلون بقديس غريب، أو يحتفظون بأسرار إحدى المهارات المتوارثة من تطريز باهر، أو ترويض خيل، أو صنع خمر. حتى أن بإمكانهم التفرد بلغة مميزة؛ ربما الولولة أثناء الضحك. يمكن للنساء أن تنشدن الأغاني الماجنة معا بينما يغسلن الملابس في المجرى، ويقضي الرجال أمسياتهم في ألعابهم العتيقة الغبية... في قرية كتلك كان الصمت ليكون مستحيلا، حتى في منتصف الليل؛ حينها ستنبح الكلاب، وستصلصل سلاسلها، وستصدر الحيوانات في الإسطبلات خوارا أو صهيلا أو أيا كان الصوت، وستنقنق الدجاجات أمام مفترسيها أو تحت الدِيوَك، وسيقفز العاشقون فوق السياج، وسيكون هناك عرافات تلقين باللعنات، وأطفال يتهامسون أسفل الأغطية... كان صمت تام وكلي كهذا ليعني أن القرية أصبحت مهجورة، أنه لا وجود لشيء حي فيها، أن مصيبة ما قد انقضت عليها وأخمدتها.

وبينما أجلس هناك، اختبرت معقولية ذهابهم جميعا إلى العمل. من المستحيل تصور مهمة لكل جار يتوجب عليه تنفيذها في الخارج، وأن تبقى الشقق خالية من أي ربة منزل، أو شخص متقاعد، أو طفل... أو حتى عاطل مثلي، يعيش من عائد تأجير ما ورثه من عقارات. أين هي جحافل محصلي الفواتير، وجامعو الضرائب، واللصوص والشحاذون؟ أيعقل أن أحدا لا يدخل إلى المبنى، أن أحدا لا يستخدم المصعد؟ أن يصيب سكان الاثنين وسبعين صندوقا جميعهم الخرس ويقررون عدم التحرك من أماكنهم فجأة وفي الوقت نفسه؟ مستحيل، بالتأكيد، لا يعقل جلوسهم جميعا كل في حجرته، يقضون الوقت في استرجاع حياتهم... فعلى أحدهم أن يملأ بالأحداث تلك الأيام التي سيفكر فيها الآخرون. يتوجب على أحدهم القتال، ليتيح للبقية فرصة الشكوى واللافعل.

كنت أنتظر «ميرنا»، رغم جهلي موعد قدومها. كذلك كنت أجهل الكيفية التي سأقضي بها الوقت لحين مجيئها. كان الأشخاص العاديون ليتناولوا وجبة الإفطار، فالثامنة صباحا موعد إفطار مثالي لسكان المدن. لكني لا أستطيع تناول الطعام؛ فالمغص يعصف بمعدتي من أثر مفكرة «أليكسا»، أستطيع بالكاد ابتلاع الهواء. يجب أن أفكر في شيء ما، شيء يمكنني فعله، أي شيء. وإلا - حتما - سأرفع سماعة الهاتف. لقد مكثت في الفراش تسعة أشهر وثلاثة أيام بالضبط، بعد آخر مرة استخدمت فيها الهاتف. حتى اللصوص في بلدنا يقضون في الحبس عقوبات أقل من ذلك، ناهيك عن إلزامي نفسي الحبس الانفرادي خلال قضاء مدتي. عندما أتذكر تلك المكالمة، يبدأ عرقي في السيلان.

أتذكر جيدا كيف توسلت إليها لترجع. استخدمت في البداية نبرة حازمة، متقمصا دور شخص عاقل سليم الذهن، حتى أني استخدمت الحجاج المنطقي... لكن ما أن أحسست ببرودتها، وعنادا منها كنت أجهله من قبل، حتى رحت بعصبية، أعدد لها كل ما فعلته من أجلها، كل المرات التي جرحتني فيها... بدأت أهينها، أتهمها بالخيانة على مدى زواجنا، زاعما أن ما كنت أمر به من ضائقة مالية هو الدافع وراء تركها البيت، أحصى لها النساء اللاتي كان بإمكاني مضاجعتهن ولم أفعل، فقط من أجلها. وضعت السماعة وأغلقت الهاتف... تذكرت في تلك اللحظة فقط كيف أني أثناء الاستعداد للمكالمة، خططت للاستعانة بالعبارة التي قالها «جون مالكوفيتش» لـ«ديبرا وينجر» في فيلم «السماء الواقية» "ما الحب عندي، إلا أن أحبك أنت". ظننت أن بإمكان تلك الجملة مساعدتي، وتلطيف مشاعرها... أما الآن فأعرف أنها ما كانت لتنجح، كانت ستنجح فقط في جعل توسلاتي أكثر إيلاما. لم ينقضي وقت طويل على مصادفتي ذلك الجزء في «لوليتا»، عندما كان «همبرت همبرت» يتضرع للفتاة كي تعود إليه. سأنقله لك:

"هل أنت واثقة تماما أن - حسنا، مفهوم، ليس غدا، ولا بعد غد، لكن - همم، ألن يأتي يوم ما تعودين فيه للعيش معي؟ سأصنع إلها جديدا تماما وأشكره بأعين دامعة، لو تمنحيني - فقط - ذلك الأمل الضئيل". (أو ما يشبه ذلك).

"قالت لا، قالتها بابتسامة، لا".

قرأت «لوليتا» بعناية، ربما مرتين، لكني لم ألحظ هذا الجزء من قبل. وعندما مررت به مصادفة، صدمت تماما. كان «نابوكوف» دقيقا كجراح - توسل لا منطقي وجواب عقلاني. تطور أحد نقاشاتنا لشيء مشابه؛ لم أعرض عليها صنع إله، لكني تضرعت من أجل ذرة أمل. وكان نفس ما كان.

لا يمكنني السماح لنفسي بمكالمة هاتفية أخرى كتلك. لا أستطيع خوضا للنفق نفسه مرتين. وجدت في قصة «أليكسا» ملاذا أفضل بكثير. لم أكن أعرف مراد «ميرنا» مني، لكني تمنيت لو أكون جزئا من تلك القصة، وأن أنغمس فيها، ليس ذلك فحسب... كنت أبحث عن معنى لحياتي، عن شيء يشغلني... وشعرت أن دخول تلك المفكرة السوداء إلى حياتي جاء في الوقت المناسب.

ولتسليط المزيد من الضوء على السر، قررت البحث في كل يوم من يوميات «أليكسا».

•

كان «مصطفى» يصيح أسفل النافذة. وبسبب حشرجة محرك سيارة في موقف السيارات يشبه سعال شخص يحتضر، لم أتمكن من سماعه بوضوح. لم أتبين سوى "نحن الإلهام"... قفزت من على المقعد، لعلمي بأنه سيكررها، وفتحت النافذة بسرعة، ليجمد الهواء البارد عرق جبهتي في لحظة، وسمعت "ها قد تحدث «مصطفى»"، ثم أصدر المحرك الضوضاء ثانية. عبر «مصطفى» البناية المجاورة، ووقفت بأسى أرقبه بينما يبتعد.

رأيته للمرة الأولى بعد انتهاء الحرب. يعمل في سوق المدينة، يفرغ الشاحنات من الأقفاص في الفجر. وعندما يتم مهمته، وفي ٨:٣٠ بالضبط، يجعل من المنطقة المحيطة بالسوق سيرك ألعاب. يسير أمام المباني السكنية، بعجالة كمن يحرص على موعد هام، ثم يتوقف فجأة، ويرفع رأسه جهة النوافذ ويصرخ: "ها قد تحدث «مصطفى»". ويتبع هذا البيان برسالة، رسالة تختلف كل يوم. وعلى مدار أشهر ثلاثة، وبينما كنت مستلقيا في الفراش، لم تفوتني رسالة واحدة. ما يزال بإمكاني تذكر بعضهم: "لم تكن هناك أماكن مبيت كافية أثناء الحرب"؛ "الكل مذنب، لا أحد بريء"؛ "تقع العديد من الحوادث ومن الصعب تركيز الانتباه على أمر واحد فقط"... قال مرة: "يعاود العالم تنظيم نفسه ويعود كل شيء كما كان". كنت لأتمكن من تدوين الرسائل، لو كانت لدي الطاقة والرغبة الكافية، ثم أحللهم وأستخرج منهم القواعد، والمعاني، والمقاصد... لكني - لسوء الحظ - لم أفعل. حكى لي أحدهم عن ذهاب «مصطفى» إلى السوق في إحدى المرات، وهناك قام الزبائن يومها بتوجيه سبابته ببطء إلى رأس كل منهم قائلين:

- أنت، وأنت، وأنت، ستذهبون جميعا إلى الجحيم.

وانفجروا بالضحك.

ثم قال أحدهم:

- ماذا؟ حتى أنا يا «مصطفى»؟ ألم أمنحك فطيرة لحم منذ فترة يسيرة؟ كان يمكنك استثنائي من ذلك.

فنظر إليه «مصطفى» بجد وأجابه بهدوء:

- لا أستطيع مساعدتك. أنا لا أتدخل في تلك الأشياء.

أبدا لم أهتم برسائله حتى هذه اللحظة، لكني شعرت في هذا الصباح أن رسالته هذه المرة كانت موجهة إلي.

لا أستطيع تذكر كم من الساعات قضيت حتى وصول «ميرنا». أعرف أني كنت جالسا أمام مفكرة «أليكسا» أدرس خط يده. قرأت من قبل كتاب «لودفيج كلاجس» عن علم الخطوط، لذا ظننت بإمكاني الخروج باستنتاج ما. وبالطبع لم استنتج شيئا، عدا إعجابي بطريقة كتابة «أليكسا» لحروفه الانسيابية - بصورة صحيحة ومتقنة، بحبر ثخين في أول الجزء المستقيم ومجرد لمسة رقيقة في نهايته. بسيط لكنه زخرفي. أنيق. حاولت تذكر شكل «أليكسا»، حاولت استدعائه من الذاكرة. واندهشت لمدى نجاحي، فقد كدت أراه وكأنه يقف أمامي. كعرض ثلاثي الأبعاد في مسلسل خيال العلمي. كان طويلا، يفوقني بنصف شبر، وبه شيء من الحدب، إلا أنه كان دائما ما ينظر للآخرين في أعينهم. لا أتذكر أني رأيته يفر أبدا. يقول بعضهم إن «أليكسا» كان في شبابه ممثل هاو، وإنه كان أفضل من يؤدي شخصية «هاملت» في مدينتنا. وأنا أصدق ذلك، فقد كان سلوكه جليلا، يشوبه - ربما - شيء من القسوة الهزلية، كأحد النبلاء في مخيلة شخص لم يرى أحدهم من قبل. شعره قصير، خشن وأبيض بالكامل، كحال الشارب الكث الذي يخفي شفته السفلى. كان يدخن السجائر القوية، بدون فلتر، ومع هذا ظل شاربه ناصع البياض، بلا أي لمسة من صفار النيكوتين. ماذا أيضا؟ كان دائما ما

يرفع ساقي بنطاله بأصابعه عند جلوسه، كي لا يتمدد القماش عند الركبتين. كان يلمس تفاحة آدم في عنقه أثناء حديثه، ويعبث بما فوقها من الجلد عند التفكير.

حاولت تذكر كل تلك التفاصيل المتعلقة بشخص «أليكسا»، ونجحت على غير المتوقع. ومع ذلك لا أذكر مجيء «ميرنا». كل ما أعرفه أنها كانت - فجأة - واقفة في الممر، بملامح جادة، وأنها كانت تنظر مباشرة إلى عيني. بالضبط كما كان يفعل والدها. أومأت لي برأسها، بشيء من الرضا افترضت أن مرجعه إلى نظرتي القلقة البادية، وسألت:

- هل ستساعدني في العثور على والدي؟

شعرت بالقوة فجأة. أخيرا. كان ذلك شعورا جيدا، أن تكون قويا، واثقا وجسورا، كرئيس الحزب الوطني. وبصوت واثق وبديع، قلت:

- بالتأكيد.

وبحركة من ذراعي، دعوتها للدخول إلى الشقة. وضغط على كتفيها بيدي، ناظرا إلى عينيها، وحرصت على إبقاء صوتي ثابتا بينما أعدها بفعل كل ما يلزم لمساعدتها. اندمجت «ميرنا» تماما في هذا المشهد التليفزيوني. كانت مبتهجة؛ تعلقت برقبتي وأراحت صدرها علي. وشعرت به لطيفا. ناعما. دافئا. وسألتني من مكانها في الأسفل، أسفل ذقني، متى سأبدأ.

- غدا، سنبدأ في الغد مباشرة، لا وقت لدينا لنخسره. بل الليلة، سأبدأ الليلة بالفعل.

أعلنت ذلك بحسم. واستدفأت بنظرتها المتنة.

كنت آمل أننا، رغم كل شيء، سنجلس في السكون التالي للوعود، ونفتح زجاجة النبيذ. أقوم بعدها بتلخيص إستراتيجية البحث، بينما أتوهج من تأثير الذكورة المستيقظة. لكن «ميرنا» قبلتني في خدي، وقالت إنها ستتصل بي قريبا جدا، ثم تركتني واقفا في منتصف الغرفة. حائرا. ربما كان ذلك أفضل. فلم تكن لدي في الواقع أية خطة على الإطلاق.

يجب علي أولا، وقبل كل شيء، إيجاد طريقة لقضاء الليلة. بدا لي أن أفضل شيء هو استكمال محاولتي لاستعادة قوتي والتدرب على الانخراط في المجتمع ثانية. فاستحممت، وعثرت على ملابس نظيفة، وانتظرت حتى لم يعد هناك كثيرون في الشارع، وغادرت. كانت السماء مظلمة، كالإسفلت الطازج. وأردت أن أبدو كالرجل الخفي[6]، فلففت

---

[6] انتابني الشعور بالخفاء لأول مرة، أثناء تأديتي الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الوطني اليوغوسلافي. يعرف كل من أدى الخدمة - وهو اسم مثالي لهذا التكليف - كيف ينتظر المجندون بصبر نافذ أولى إجازاتهم؛ كم يشتاقون لسحر الحياة المدنية الذي اكتشفوا وجوده حديثا، كم يودون التمتع بنسيم الحرية، ومراقبة الأحرار يمارسون حياتهم؛ وملاحظة تفاصيل الملابس المدنية، وزخارف الستائر عند النوافذ، والبضائع الفاخرة خلف واجهات المتاجر؛ أن يقرروا بأنفسهم إما التوجه يمنة أو يسارا أو الاستدارة للخلف والعودة. لكن أشد رغباتهم هي رؤية الجنس الآخر. أذكر كم شعرت بالحزن لعدم ملاحظة الفتيات لي، رغم تنظيفي الزي العسكري بعناية، وإحكامي ربط الحزام حول خاصرتي. حتى أنهن ما لاحظنني عندما وقفت أمامهن. إنه أثر الزي الرسمي، أخفاني تماما، كعباءة «فرودو» في ملك الخواتم.

وشاحا حول وجهي وأنزلت غطاء الرأس حتى حاجبي. كان هذا هو الحل الأمثل؛ فقد اعتدت أداء ذلك الدور تماما.

* * *

خلال السنوات الخمس الأولى لزواجنا، اعتقدت بشدة في تقييد الزواج لحريتي، وآمنت بأن حياة بدون نذور زواج كانت لتكون أفضل حالا وأكثر إثارة. كنت أقف أحيانا خلال الليل، أمام النافذة، أثناء نومها، أراقب الكيفية التي تحيا بها المدينة. من دوني. أحصيت النوافذ المضاءة كلها، وتخيلت هؤلاء الأشخاص المثيرين للفضول والمتيقظين، الذين لم يرتدوا البيجاما - قطعا - للجلوس لمشاهدة فيلم الأمسية. أصغيت إلى الضجيج الصادر من المقهى، مستمتعا بأجزاء ومقاطع من الأغنيات والضحكات. حتى أثناء إمساكها يدي نهارا، كنت أختلس النظر إلى الجميلات في الشارع وأتخيلهن يرسلن الإشارات السرية لي. أعددت في ذهني قوائم من الجميلات اللاتي لن أجامعهن أبدا. وأخذت في الاعتبار هؤلاء اللاتي لا يرافقهن رجال، وبخاصة من كن يرمقنني منهن. فكرت في كونه وطنا يمتلئ بالكائنات ذوات الجمال الاستثنائي، في كل مقاطعة، على كل ناحية من الخط الفاصل بين الكيانين. كنت واثق من وجود نساء حزينات، وحيدات، ينتظرن سماع قصتي والتمتع بالنكات التي كانت تجعل زوجتي تضحك متمايلة في أول علاقتنا. وماذا عن وضع النساء في

البلاد المجاورة؟ من الواضح أنهن ينعمن برفاهية تامة؛ يمارسن الفجور في مسبح الثقافة الذي اعتدنا مشاركتهن إياه من قبل. وماذا عن وضع النساء في الدول الثرية دائمة السلم؟ حيث ستفسر الكثير من النساء كل سكنة من سكناتي على أنها نتيجة للصدمات التي عانيتها أثناء الحرب، وسيحاولن بإيثار مواساتي. كما رقصت فاتنات البلاد الغريبة في مخيلتي، فيهن الجامحات، العدوانيات، بسبب دورهن الخاضع التقليدي، وأخريات وهبتهن الطبيعة قواما يلائم أكثر رغبات الرجال فظاظة. هكذا كانت أحلام اليقظة الخاصة بي.

تغير كل شيء، عندما غادرت زوجتي[7]. ما تزال الفاتنات تعبرن من أمامي، لكنهن ما عدن يلحظنني. حاولت لفت انتباههن، لكن ردود أفعالهن لم تكن تثير سعادتي حالة نجاحي. كن يتعاملن مع نظراتي كهجوم، وإهانة. منهن من قابلت نظرتي بأخرى متغطرسة وجعدت أنفها الجميلة بازدراء. وتجاهلني معظمهن، كما لو لم أكن موجودا. أو بعبارة أدق، كما لو كنت شفافا. رجل خفي، كما ذكرت لك من قبل.

شعرت الآن بالحاجة للقاء أنثى. فقررت المداومة على زيارة نفس الحانة التي كنت أرتادها قبل زيجتي: «حانة السبعات».

---

[7] هي لم تغادر، بل تركتني. هكذا اعتقدت حينها وهكذا أعتقد الآن. بدأت حياة جديدة، في حجرات أخرى مع قطع أثاث غريبة. وبقيت أنا في المكان نفسه، أجالس باستمرار الفراغ الذي خلفته وراءها. أنا وحيد ومكتئب. وليس لدي من يقوم على رعايتي.

لم تتغير. ما تزال ملصقات العظماء السبع تزين الجدران، «بياض الثلج» والأقزام السبعة، محاربو الساموراي السبعة، فيلم الختم السابع؛ نفس المقاعد، نفس منافض السجائر. كما كانت الزبائن هي نفسها. أغلبهم ممن لا يزال حيا من بين أبناء جيلي. يأتون في كل ليلة، وإن كنت لا أستطيع تصور قدرة أي منهم على الإتيان بحجة مناسبة لتفسير تعلقه بذلك المكان. كان المالك متعجرفا؛ يتصرف كأنه يدير مؤسسة متعددة الجنسيات، لا مجرد حانة متواضعة. أذكر مرة استفسر فيها أحد أصدقائي (صديق سابق بالطبع) عن نجاحه الدائم في اختيار أسوء الأغاني من بين مجموعة التسجيلات، وقد أجاب ساعتها بجدية بالغة:

"أنا لا أضع الأغاني من أجل الأغبياء أمثالك. بل أنتقي ما قد يعجب الفتيات. وعندئذ ستأتي أنت - مهما كانت الأغنية - من أجلهن"[8].

كان محقا.

كانت النساء هي السبب وراء عودتي إلى هذا المكان الحقير. عدت نادما على محاولاتي - طيلة سنين - لإبقاء الآخرين خارج حياتي. فعلت

---

[8] علمت فيما بعد بالخطط المشابهة التي استخدمها هتلر لإخضاع الجماهير، وسأنقل لكم نظريته كما سجلها «جلين ب. إنفيلد»:

"أتدري بأن حال جمهور السيرك يشبه حال المرأة تماما؟ لن يكون متحدثا ماهرا هذا الذي يجهل أن شخصية الجماهير في جوهرها هي شخصية امرأة. سل نفسك: ماذا تنتظر النساء من الرجال؟ الوضوح، والحسم، والقوة، والتنفيذ. ونحن نبغي مشاركة الجماهير في التنفيذ. فالجماهير - كما المرأة - تتحرك بين طرفي إفراط. لا تشبه الحشود النساء فحسب، بل وتشكل النساء أهم عنصر في أي جمهور أيضا. فعادة ما تتولى النساء زمام المبادرة، ويكون الأطفال أول اللاحقين، وفي النهاية يأتي الآباء، بعد اكتسابك تأييد الأسرة كلها".

ذلك عن عمد. لم أستطع احتمال الالتزامات الاجتماعية، ولا أي نوع من أنواع المسئولية. بالكاد تحملت حاجاتي البيولوجية التي لا أملك سوى الإذعان لها. لم يكن انفصالي عن العالم صعبا: كل ما تطلبه الأمر كان التخلص من حفنة أصدقاء وقليل من المعارف. كانت لمسة من الغرور، وبضع وعود كاذبة، وآمال خائبة، كافية لأداء المهمة. وأصاب الهاتف الخرس. وكنت سعيدا.

لكني في ذلك المساء، حينما دخلت كالمطارد إلى «حانة السبعات»، كنت في حاجة ماسة للصحبة. كان ذلك واضحا، حتى في تلك الأمسية الأولى، عندما نجحت في الحصول على صحبة أنثوية جذابة. بدأت الحوار بملاحظات قليلة حول الزبائن الآخرين وردّدن علي بإعجاب، ضاحكات متمايلات؛ من الواضح أنهن مكثن وحيدات لفترة طويلة، مما جعلهن يرحبن بصحبة قديمة الطراز. لما فرغت من الفكاهة قررت أن أستعرض ذكائي كذلك، لذا تكلمت في الأدب، وحرصت على ذكر الكتاب الذين غلب على ظني عدم قراءتهن لهم، مستخدما تعليقات من نوع: "أجاد «سيلين» التعبير عن كوميديا اليأس" أو "إن «جامونيا» هو الوحيد الذي استوعب جوهر القصة القصيرة".

وما أن لاحظت شرود أذهانهن، حتى استعجلت الشراب لأخفف حدة توتري وأفك لجام لساني. وبالطبع استرخى عقلي، لكن لساني انعقد عقدا. صارت تعليقاتي شديدة الغرابة، لكن - وفي نفس الوقت - غير مفهومة. وبعد زجاجتي شراب وخمس عشرة دقيقة، صار كل شيء غائما. بدأت أنظار الفتيات في مسح الحانة، بينما أمسك بأيديهن محاولا بلا جدوى

استرداد انتباههن. ثم قضيت ساعة أخرى من السكر قبل أن أبدأ أخيرا في البكاء. نعم، فعلت ذلك، وبحرارة... تساقطت دموعي على الطاولة بينما أتحدث عن زوجتي وأحكي كيف أنها هجرتني بوحشية، وحيدا، عاجزا من دونها، تعيسا، عديم الجدوى، خفيا. غمغمت من بين الدمع، ولما مسحته وجدت أن الفتيات قد غادرن الطاولة. همس النادل بود في أذني، ربما كان من الأفضل أن أستريح في البيت قليلا. فأخذت بنصيحته.

قررت في اليوم التالي أن أشرب بمزيد من الحرص وأن أجلس بمفردي. إلا أن تلك الفكرة تبين فسادها أيضا. انتابني شعور بأن الجميع ينظرون نحوي، يعيدون سرد مشهد الليلة السابقة ويتهامسون عن بشاعة فشلي في الحصول على صديق واحد، مجرد صديق واحد، خلال سنوات عمري العديدة.

وجدت في الليلة التالية مكانا في الركن... لا، لم يكن ذلك كل شيء، لقد كررت المحاولة. عثرت على رفقة قديمة وخرجت معها. ظننت أني سأكتسب الثقة بالنفس وأستعيد التناغم الاجتماعي بصحبتهم. لم تكن تجربة مريحة، وتبين سوء الفكرة من الأساس. فقد بدوا أشد بؤسا مني. كانوا يحتقرون الزبائن كلهم، بخاصة هؤلاء الذين يلقون عليهم أشد التحيات حرارة، سخروا من كل نقيصة، قللوا من كل محاولة للنجاح. وأدركت أني لا أستطيع احتمالهم.

لذا، وجدت في الليلة التالية مكانا في الركن. جلست في موضع مميز، حيث يمكن للرواد المستديمين رؤية المشهد بأكمله، بينما يراقبون الطريق في الوقت ذاته ويرصدون دخول الزبائن الجدد. كنت هناك،

متمركزا مثل كاميرات المراقبة، أشرب بتأني وأخفف الكحول، لأمنع السكر وألطف من الدوار الناتج عن الخمر. كنت وحيدا في هذا المكان المزدحم. لست بحاجة للشرح حتى؛ العلاقات في تلك الأماكن مفهومة: تأتي الناس بسبب احتياجها للقاء أشخاص آخرين، ثم يتظاهرون بعدم ملاحظة بعضهم البعض. انقضت الليلة دونما أحداث مزعجة. بل كانت - في الواقع - ليلة لذيذة.

مع ذلك، لم أحتج غير أمسية أخرى لأفسد الأمر برمته. شعرت بكراهية تجاه زبائن الحانة، والعاملين، والملصقات على الجدران، ومنفضات السجائر، وحامل الصحف اليومية، ومكيف الهواء، وخزائن الأكواب الضيقة، والموسيقى المنتقاة، والكئوس، وصندوق الشكاوى الفارغ، ونتيجة العام، والمصابيح، وطوابع البريد المجانية، ووشاح فريق كرة القدم المعلق خلف البار، والبلاط، والسقف، وكل صدع، والمرآة. وأعتذر إن نسيت ذكر شيء كرهته أكثر مما كرهت تلك الأشياء التي ذكرتها بالفعل. جلست في الركن، ثملا، أراقب الناس، كأنبوب غاز ضعيف الصمام. كانوا يملئون الحانة بأكملها، حتى كادت الجدران أن تنفجر. واستنفد قواي غضب غريب، لم أشعر بمثله من قبل. تصلب فكي من تأثيره. حاولت اكتشاف مصدر الغضب، وأظن أني قادر على توضيحه، ولو على هيئة نسب مئوية:

٥٠٪ كحول

+

١٠٪ تعرض للإجهاد

+

١٠٪ ضعف جسدي ونفسي

+

١٠٪ خوف من الوحدة

+

٥٪ خوف من المستقبل

+

٥٪ فشل توقعات الأرصاد الجوية

=

انفجار غاضب أخرق، غير قابل للاحتواء

صرخت:

- عليكم اللعنة جميعا!

لم ينتبه لي أحد، لذا هشمت نظارتي على الأرض وصحت مجددا، بصوت مدوي سبب الألم لتجويف عيني:

- عليكم اللعنة جميعا!

أخيرا، نظر إلي جميعهم. وابتسم لي النادل بشفقة، فلطمته بيدي المرتعشة. قذفت الصفعة برأسه إلى الوراء. أغلق أحدهم الموسيقى؛ وأمسكت بي أياد قوية واصطحبتني للخارج. قاومت بلا جدوى. كان الحراس يضحكون ويحاولون تهدئتي بالنكات كما لو كنت طفلا منفعلا. وقف مالك الحانة القصير أمامي. ها قد حانت فرصته. كنت أنا الأوسكار المقدمة له، جائزة الـ«جرامي»الخاصة به، ميداليته الذهبية؛ كنت بديلا عن نظرات الفتيات المتيمات، وصرخات إعجاب الرجال، وهتافات الأستاد الرياضي المدوية، وصياح حفلات الروك... كنت كأسه؛ ذهب النازيين المنهوب؛ بطاقة عضوية نادي ذواقة الذهب... أغلق عينيه بشكل شهواني أثناء توجيهه صفعتين إلى وجهي: صفعتين أنيقتين، وصاخبتين، وفعالتين. رأيت النشوة في عينيه - واضحة، مائة في المائة، لا يحجبها شيء: اكتفاء كامل من الأدرينالين. كان يشع كشهاب بديع يفصل بين عصرين. كان الاشتراك في تلك التجربة أمرا لا ينسى. مسح يداه الصغيرتان - بعد توجيه اللكمات - في بنطاله، وملس على شعره

وتنهد بعمق. خشيت للحظة أن يقول: "سببت لي تلك اللكمات ألما أكبر مما سببته لك"، لكنه لم يفعل ذلك، بل قال ما هو أشد سوءا:

- كان هذا من أجلك. ارجع إلى بيتك الآن واستجمع قواك، وسننسى كل ما حدث. يمكنك العودة إلى هنا، لكن إياك أن تسمح بحدوث ذلك مجددا.

كان يعرف مدى وحدتي! كان يعرف أن حانته هي المكان الوحيد حيث يمكنني مقابلة الناس! اشتمت أنفه رائحة خوفي من الوحدة! تألمت لإدراك ذلك أكثر من أية ضربة. تألمت لانفضاح خوفي، لإمكانية قراءته ككتاب مفتوح. أردت إخباره بأنه مخطئ، أنه لا يعرف شيء عني، وأن الوحدة شيء يسير بالنسبة لي، حتى لو كانت تامة وأبدية.

رجع ثلاثتهم إلى الحانة، وبقيت في مكاني. ضرب الهواء البارد موضع الصفعات، ثم اخترق دماغي وزاد أفكاري المنحرفة جنوحا. سمعت صوت بوق سيارة. إنه «إكرام» يطل برأسه من نافذة سيارته الأجرة ويصيح يدعوني للركوب. لا أدري مقدار ما شاهد من العرض المنقضي، لكنه اكتفى بقول:

- أراك بحاجة إلى بعض من حساء «إكرام» الشهير، يا جاري العزيز.

ساهم المكان المألوف فور ركوبي السيارة في إشعاري بشيء من السكينة. اعتدت الاستعانة بـ«إكرام»، لفشلي المستمر في اجتياز اختبار القيادة. لا أذكر رؤيته مرة قلقا؛ بدا قادرا على إيجاد الحل المناسب لأية مشكلة. حدث من قبل أن امتلأت الصحف بقصص هجمات يتعرض لها سائقو الأجرة. شعر حينها كل سائقي المدينة بالقلق، وأخذوا يسلحون

أنفسهم. كانوا يقارنون بينهم في موقف السيارات ليعرفوا أيهم أتى بالاحتياطات الأمنية الأكثر فعالية، وسألوا «إكرام» عن نوعية سلاحه. أخبرهم بنبرة هادئة أنه يحتفظ بيد جاروف في صندوق السيارة. ولما أشار أحدهم إلى ما للمجرمين من فرصة لقتله ثلاث مرات متتالية قبل أن يتسنى له الوصول إلى صندوق السيارة، كان جوابه:

- ربما يمكنهم ذلك؛ لكن ما أن يصل «إكرام» إلى صندوق السيارة حتى...

وبينما نتناول الحساء، قام بطرح سؤال:

- غياب المرأة يجعل الحياة صعبة، أليس كذلك؟

لم أجبه؛ افترضت فيه القدرة على تقييم الوضع بالنظر إلى حالتي. بدا أن ذلك ما كان يتوقعه، لأنه شرع على الفور يتغنى بمزايا حياة العزوبية. سأحاول عرض نظريته:

- تزوجت ثلاث مرات واتخذت عددا من العشيقات بالإضافة إلى الزوجات. لكني قررت في يوم ما - فجأة - ألا أفرض مزيدا من القيود على نفسي. يكفيني ما حصلت عليه من الحب. لن أقدم شيئا لأحد، ولن أطلب شيئا من أحد. ساعتها أصبحت رجلا جديدا، ولدت ثانية. أزور زوجاتي السابقات، وأرى أبنائي، ولدي عشيقة، لكني لا أسمح لأي منهم بتناول القهوة في بيتي، ناهيك عن قضاء الليلة فيه. هل فهمت؟

بدت شقته باردة، عارية كمعارض الأثاث. يملك زوجا من الكراسي ذات الذراعين، وكرسي عادي، وخزانة ملابس وسجادة. ذلك وفقط، لا شيء آخر، لا جريدة، ولا قصاصة ورق. لا شيء. كنت أتجمد من البرودة، وتطن رأسي من أثر الضربات، وتحرقني جبهتي، وتصفر أذني. لكن «إكرام» لم ينتظر مني ردا.

- لن أقبل بتغيير حياتي مهما كان المقابل. أنا سيد قراري، سواء كان القرار صائبا أو خاطئا. أفعل ما أريد ولا أعتني بأحد غير نفسي. وإذا ما أردت إشباع احتياجاتي الجسدية، تفهم قصدي؛ فأكوام النساء في كل مكان من حولي. وفي حالة الكسل، فإن العاهرات متواجدات دوما، والعديد من الأفلام الإباحية متاحة في كل نوادي الفيديو.

تخيل أسئلتي وأجاب عنها. كان يكثر من التلويح بيديه أثناء حديثه؛ فغالب الظن أنهما يسببا له الحيرة في غياب عجلة القيادة.

- أحرص على عدم الوقوع في الحب. فبينما كانت زوجتي في قسم الولادة، قمت بإحضار عشيقتي إلى البيت. كان يجب أن أفعل ذلك، هل تفهمني؟ ليس بسبب الجنس، بل بسبب قلقي عليها. لن يسمح الرجل الذكي بهذا.

جلست صامتا، فوضع يده على كتفي، وانتظر بصبر حتى رفعت بصري عن الطبق ثم قال الملاحظة الختامية:

- القاعدة الرئيسية هي تجنب ملء الفراغ الذي خلفته امرأة. عليك أن تترك حياتك القديمة وتصنع أخرى جديدة تماما. لك وحدك، كما تريدها! هل فهمت؟

لم أفهم شيئا حينها. فقط شعرت بالارتباك، كأن كل ما بداخلي يبدل مكانه. ضغط على فكي بقوة، كي لا يرتعش من البرودة التي اجتاحتني. كان الوضع شبيه بالدخول إلى العاصفة، والتي تسربت بدورها إلى رأسي وشوشت كل فكرة معقولة. طرأت كل الأفكار على ذهني؛ حتى أني فكرت في الانتحار. لم لا؟ لدي من الدوافع ما يكفي. ألم ينتحر «فرانسوا فاتيل» طباخ البلاط الفرنسي في القرن السابع عشر، لمجرد فشله في توفير أسماك للمأدبة من البحر الشمالي؟ وأنا وحيد، ويائس، وذليل: وتلك دوافع - بالتأكيد - أكثر قوة للانتحار.

* * *

اخترت طريقا أيسر - قررت عدم مغادرة الشقة بعد الآن. لو كان البقاء وحيدا قدري، إذا فهو ما يجب علي فعله. سأتخلى عن العالم الخارجي حفاظا على شرفي، تماما كما يضحي القادة بالجنود المشاة. أغلقت على نفسي حجرتي، هي المكان الوحيد الذي يمكنني فيه الحفاظ على ما تبقى من كبريائي. وتولت الجدران النحيلة للمبنى الجديد حمايتي من سائر المدينة. ولم أفكر - ولا للحظة واحدة - في المغادرة.

ببساطة، لم تكن لدي القوة لبدء حياة جديدة. كما كنت فاقدا للأمل في أن يصير وضعي - في أي مكان - أفضل مما هو الآن. فلأي سبب قد تعاملني مدينة أخرى بصورة أفضل؟[9] ولما كنت مقتنعا بذلك تماما، مكثت في الفراش تسعة أشهر وثلاثة أيام.

تلك هي القصة... وأتمنى أن يكون من الواضح الآن كم كانت معاودة الخروج إلى المدينة، أمرا خطيرا وصعبا ومجهدا بالنسبة لي. ها أنا، أسير متخفيا وراء المعطف والشال في الليل الحالك. كان فترة ما بعد منتصف الليل: صدى أصوات غير منتظمة، أقدام تدوس الثلج وتسحقه، قطار بعيد يهدر كما الشلال. سمعت شابا يقول لصاحبه بثقة، "خلعت ملابسي كالبرتقالة من فرط سعادتي". رأيت الخفير نائما في غرفته، أسفل نتيجة حائط مليئة بصور للبطاريق. مررت بفتاة ترتدي غطاء رأس من الفور تتحدث مع شخص في سيارة ميرسيديس. سمعت المشردين على فرشاتهم يتحدثون أثناء النوم. مشيت بسرعة، حتى لا يظنني أحد خرجت للتسكع. أردت الظهور كرجل عائد من عمله، من نوبة مسائية، يسرع لبيت فيه حساء دجاج وعائلة دافئة بانتظاره.[10]

---

[9] ماذا كنت لأفعل هناك، في مدينة النور، والأرض الموعودة؟ أعمل بالصحافة؟ هل سيرى أحدهم مهارة استثنائية، لا تعوض، في دقة تدويني للكلمات الصادرة عن مشغل الشرائط وبدون أي تفكير في المعنى؟ بدأت أفكر في تفاهة عملي للمرة الأول عندما صرت وحيدا؛ أجريت جردا لحياتي، وأعددت قائمة بكل الأشياء العبثية التي أضطر لها يوميا. كانت قائمة مديدة. ما أن انتهيت من كتابتها حتى تركت الوظيفة واكتفيت بإيراد العقارات المستأجرة. يكفيني هذا المبلغ الشهري تماما. فقد تعلمت تجاهل الحاجات، حتى الضروري منها.

[10] ما تزال آراء الناس وانطباعاتهم تشغلني. أيمكن لشخص ما أن يتمتع بلامبالاة مطلقة؟

وجدت نفسي - بلا مقدمات - أمام مدرسة الموسيقى. لم أتعمد قصدها يقينا، أنا واثق من ذلك، ولا كان التجول في تلك المنطقة عادة عندي، فنادرا ما أسير في هذا الدرب. فجأة وجدت نفسي هناك، دون إدراك لكيفية حدوث ذلك، كما لو أني اختفيت من مكاني القديم وظهرت هنا، في باحة المدرسة. بدا المبنى حينها كمنزل مسكون من تصميم «تيم برتون». وفانوس إنارة معطوب يومض ما بين مرور ثواني وأخرى، يرسم ظلا مرتعشا لشجرة حور على واجهة المبنى، كأنها عروق المبنى وشرايينه. كانت الريح تهدر كمكنسة كهربائية متخمة. تغلب الوداعة على المدرسة نهارا، بل والمرح، فلها لون أزرق، يتناغم مع لون واجهة مبنى الحضانة البرتقالي المقابل لها. وعلى إحدى نوافذ الحضانة، تتلألأ شمس من الورق الذهبي. تخيلت الحارس واقفا يراقب الأطفال من مكانه في المدخل وهم يلعبون، يدخن سيجارته ويلهو بسلسلة مفاتيحه حول إصبعه، بينما يضرب زملائه المساجين في البدروم. صورة معقولة جدا ولا مغالاة فيها. لقد رأيت من مثيلات تلك التناقضات المستهجنة والبشعة الكثير أثناء الحرب.[11] تلك أشياء يصعب بشدة تحملها...

[11] شهدت أثناء الحرب زيارة لأحد السياسيين إلى وحدة من وحدات جيش جمهورية البوسنة والهرسك. كانت الجنود تقف في تشكيل شرفي أمام مبنى إدارة المصنع القديم، الذي صار مؤخرا مقرا لمجلس القيادة. كان أول من غادر السيارة الفارهة هم الحراس البدناء بأجهزة اللاسلكي في آذانهم، وأيديهم على مسدساتهم. ثم هبط السياسي في بذلته النظيفة. وتوجه مدرب كرة سلة سابق وضابط حرب على أحدث طراز إلى السياسي بمشية عسكرية مسلية، وزعق يخبره أن الجنود مستعدين للعرض. شفط الموظف معدته، وأغلق أزرار بذلته، وأحكم غلق فكه، ثم تبختر أمام الوحدة كبطريق عجوز. رفع الجنود بنادقهم تحية له وتابعوا مشيته الهزلية بنظرة متجهمة. استدار السياسي على كعب حذائه الفاخر، وتمشى على أطراف

عدت إلى البيت، متعبا. وعلى المقعد، فكرت في كيفية مساعدة «ميرنا»، لكني فشلت في إيجاد أية حلول. لا أملك أية نفوذ في المدينة، ولا أعرف حتى شخصا يتمتع بها.[12]

ثم حضر الصداع. لم يأتي كعادته - بالضغط على عيني وشد جلد جبهتي. بل جاء الألم كاللطمة، واستمر هكذا، بنفس القوة. أنرت المكان وحاولت العثور على أقراص لتخفيف الألم. لكن بلا جدوى؛ مضى وقت طويل منذ آخر مرة حوى فيها مسكني أي شيء يمكنه مساعدتي.

استلقيت مستيقظا طوال الليل. لا أذكر ما كنت أقوم به في الصباح عند مجيء «ميرنا»؛ غالبا ما كنت أحتسي القهوة وأتظاهر بالاستيقاظ من النوم.[13]

قالت من على الباب:

أصابعه حتى وقف عند منتصف الوحدة، وأعاد شد أطراف جاكيت البذلة بدون داعي، وانتصب كتمثال في مواجهتها وصاح: "يعيش الوطن!" فردت الوحدة النداء في صوت واحد: "يعيش!!!". كان العمال الذين اضطرتهم دواع أمنية للبقاء، يشاهدون العرض العسكري، لم تسمح لهم الشرطة بمغادرة المصنع. وقفوا عند السياج المجاور لبوابة المصنع ينتظرون بصبر انتهاء المراسم الهزلية، مشتاقين للنوم ولأسرهم. لم يقحم العمال أنفسهم في أعمال غير ضرورية، على عكس الممثلين في أرض العرض. اكتفوا بالاعتماد على السياج أو الجلوس على الإسفلت، مجهدون وجوعى.

[12] أوقن أن لكل شخص في مدينتي علاقاته – فرد من العائلة، أو ابن عمة، أو صديق، أو أب روحي، أو أخ غير شقيق، أو عشيق، أو مستدين، يشغل وظيفة مهمة. لكل شخص من يؤازره، ويزكيه، ويسمح له باجتياز الطابور. أرى في استمرار وجود الطوابير أمرا عجيبا. لكن ما دامت الطوابير باقية، ولو مجرد طابور واحد، فأنا أثق أني سأكون هناك، أقف بفخر في نهايته.

[13] من الذي كنت أحاول خداعه؟

- عليك أن تساعدني.

وأردفت بسرعة:

- أرجوك.

سألتها بذهن شتته دوام الأرق:

- ما الأمر؟

- يجب أن نذهب إلى الشقة اليوم.

سبقتني بخطوتين. لم ترغب في انتظاري ريثما أعقد رباط حذائي، لذا كان الجليد يتسرب إلى داخله. سرنا بمحاذاة سور السجن الكبير، الواقع في قلب المدينة تقريبا. كان أحد الحراس يراقبنا من على قمة برج المراقبة. أفترض أن واجبه هو النظر داخل السجن، لا خارجه. من كان يحرس؟ كدت أرتطم بـ«ميرنا» عندما توقفت فجأة أمام أحد المباني. ورفعت رأسها جهة النوافذ، كما يفعل «مصطفى».

سألتها:

- هل كنتم تقيمون هنا؟

- نعم، في الطابق الثالث.

- إذا، هلا صعدنا؟

- لا أستطيع، عليك أن تتفهم. الأمر صعب بالنسبة لي؛ لا أستطيع احتمال فكرة عيش غرباء في شقتي. تعرضت لكابوس مشابه في طفولتي. حلمت أني استيقظت صباحا، ولم يكن معي أمي ولا أبي، بل كان هناك أشخاص مجهولون تماما. اعتدت ألا أفتح عيني بعد تلك النوعية من الأحلام، خوفا من كونها مستمرة ما تزال. اصعد وحدك، أخبرهم أنك من العائلة، أيا ما تشاء. لكن رجاءا، اكتشف هوية المقيمين هناك. سأنتظرك هنا.

ما الذي كان يمكنني فعله؟ كانت مصممة، وكنت مشوشا. أمام المبنى عجوزتان جالستان تخيطان على كراسي خشبية، ترتديا بلوزات سميكة ويتوجهما غطاء رأس صوفي عملاق. بدأ جلوس الناس أمام الردهات أثناء الحرب، إما خوفا أو رغبة في الاطمئنان على بعضهم البعض. تصورت انتهاء هذه العادات مع حلول السلام، لكن من الواضح أن هاتين المرأتين لم تزهدا في تلك الرفقة بعد. توجب علي المرور بينهما لدخول المبنى. رفعتا رأسيهما عن الخياطة في أن واحد ورمقتاني من أعلى لأسفل، نظرة سريعة لكنها شاملة.

كان المصعد معطلا، صعدت إلى الطابق الثالث ووجدت الباب الذي يحمل اسم «أليكسا رانكوفيتش». كان الباب الأبيض متسخا تماما، مغطى بطبقة قذارة كقشور الجروح. ضغطت جرس البيت، لكنه لم يعمل. قررت أن أطرق، جززت على أسناني وضربت بقبضتي الخشب سريعا، مرتين. صدر الصوت مكتوما، كأن الباب مبطنا أو مزدوجا، وربما كان التشبيه التالي صعبا، إلا أنه كان بالفعل كالضرب على ظهر حيوان ضخم. لا جواب. اقتربت

من الباب، وأصغيت السمع. لا شيء. لكن الصمت لم يكن عاديا. كان البيت مسكونا. شيء ما يعيش في الداخل. شيء يتكلف السكون ويكتم أنفاسه. لا أستطيع الشرح، لكن ذلك كان شعوري - شيء ما، مليء بالغضب، والكراهية. حتى أنه كان حيا وميتا، في الوقت ذاته. من الصعب تفهم ذلك، لكنه ما شعرت به صدقا. كنت واثقا من صحة شعوري. وأردت الطرق مجددا، كورت قبضتي، رفعت يدي، ثم اقتربت من الباب. لكني على الفور أنزلت يدي وأخفيتها وراء ظهري. كنت أخشى أن تغوص يدي في لوح الخشب فيقبض عليها ذلك الشيء الصامت. تضاعف خوفي بسبب ظلمة مفاجئة في الردهة. لم يكن أمرا غير مألوف، ولا جاء نتيجة قوى سحرية مؤثرة، بل هو مجرد توقيت آلي لغلق مفاتيح النور. إلا أن هذا التفسير لم يطمئنني على الإطلاق. كان الظلام مريعا. كان يسحقني كآلاف الستائر الفخمة الرطبة. له رائحة سامة كداء فظيع، أو رائحة حمام بلدي في محطة قطار. تحسست الحوائط بكفي، ضربت عليها براحتي، باحثا عن ذلك المفتاح؛ لكنه لم يكن موجودا. لم أعد قادرا على الاحتمال. اندفعت أهبط السلم، وانزلقت على الدرابزين، واصطدمت بالحوائط إلى أن توقفت بالضبط أمام العجوزتين. واخترق الصمت صوت قادم من إحدى كومتي الصوف:

- ما الذي يطاردك يا طفلي العزيز؟

همهمت بتحية ما في المقابل، وحملت رأسي بين كتفي وركضت حول ناصية المبنى.

كانت «ميرنا» واقفة إلى جوار رجل ثلج متقن الصنع. سألت بصوت رقيق:

- ها؟

أجبت محاولا التقاط أنفاسي:

- لا أحد هناك.

أسكنت جبينها إلى خد رجل الثلج.

- ماذا تعني بلا أحد؟

اختفت الابتسامة تماما، كأنما تمت إزالتها بممحاة.

- بكل بساطة، جربت الجرس الكهربائي لكنه لم يعمل، فطرقت الباب مرتين دونما جواب.

قالت وهي تمسك بيدي:

- عدني أنك ستكرر المحاولة غدا

تمنيت ألا تلحظ العرق في كفي.

وعدتها:

- سأفعل، لا داعي للقلق.

- إذا سأراك غدا.

أطلقت سراح يدي وابتعدت تهبط الشارع.

ناديتها صائحا:

- أين؟

- في نفس التوقيت، عند رجل الثلج.

اللعنة على رجل الثلج. تمنيت لو تظهر الشمس غدا وتذيبه. لكنه احتمال مستحيل التحقق، فقد كانت السماء رمادية، بلون معدني بدا معه الغيم محكما، حتى الشمس نفسها لن تتمكن من اختراقه. ورياح جليدية تجفف الثلج، فتحوله رمادا، لتلتقطه، وتعبث به ثم تقذفه في أعين الناس. يسرع المارة الخطى، خافضين رؤوسهم، لتفادي البلورات الباردة. كانت المدينة كئيبة، وناعسة، ومصابة بدوار الخمر. وبحلول منتصف النهار، كنت أفكر أن ما فاتني خلال تسعة أشهر وثلاثة أيام لم يكن بالأمر الجلل.

عندئذ، قررت بدء البحث في محطة إذاعة المدينة. وهو قرار ستوافقني عليه. فقد قضى «أليكسا» الكثير من الوقت في الإذاعة. كذلك فعلت أنا، في وقت من الأوقات...[14]

---

[14] قبل انشغالي بالعمل الرتيب في الصحف اليومية، كان لدي برنامجي الموسيقي الخاص على الراديو. كنت أبث ما يروق لي من الأغاني، ولا أهتم بتفاعل المستمعين معها، كان ذلك ممتعا. في إحدى المرات أهديت البرنامج كله إلى فتاة، بمناسبة عيد ميلادها. لم أذع سوى أغانيها المفضلة. أذكر بعضا منهم الآن - نسخة «كاوبوي جانكس» من أغنية «جين الجميلة» لـ«لو ريد»؛ و«كما الإعصار» لـ«نيل يونج»، و«غامض» لـ«جرانت لي بافلو»؛ و«كاثلين» لـ«تاونس فان زانت» بأداء «تيندرستكس»؛ و«معطف مطر أزرق شهير» لـ«كوهين»، و«إلى ذراعي» لـ«نك كيف»، و«الأمس هنا» لـ«توم ويتس». لكني قطعت عهدا

وعند محطة الإذاعة قابلت الأسى. وجدت في الاستقبال فنجان قهوة فارغ، ولم أجد في المكاتب حركة إلا لصور متقافزة على شاشات الكمبيوتر، بينما يتولى برنامج «وينامب» في الاستوديو تبديل التسجيلات تلقائيا. كان مشهدا من أحد الأفلام التي تصور ما بعد نهاية العالم، لكني أعرف أن «ميرزا» كان لينجو حتى من نهاية العالم. وجدته في مكتبه، حجرة صغيرة مليئة بأجهزة مذياع قديمة، وشرائط تسجيل، وأجهزة تشغيل أسطوانات، وتليفزيونات، ومكانس كهربائية وبعض المعدات المهملة التي تنتظر صيانة منذ عقود. ومن بين الكابلات التي تتدلى من السقف، شق «ميرزا» طريقه في قبقابه الأبيض. «ميرزا» هو أكبر موظفي محطة الإذاعة سنا؛ ويزعم كونه أحد مؤسسيها، رغم تراجعه عن هذا التصريح فور ذكر أحدهم لسيرة التقاعد والمعاشات. وبسبب المكانة التي أصبغها عليه الزمن، ظن أنه يمتلك حقوق ملكية للشركة. كما يعرف عن «ميرزا» ادعاءه الجاد بأن لولاه لما كان ولا ظل هناك وجود لأي برنامج.

- يستحيل بث أي شيء إلا بعد ضبطي منظم الجهد الكهربائي.

ولما وصل التقدم التكنولوجي أخيرا إلى محطة إذاعة المدينة، صدم «ميرزا» عند مشاهدته عروض الـ«دي جيه»، حيث يتولى شاب واحد مهام البرمجة والعمل على هندسة الصوت في آن واحد. لكنه لم يتبنى التكنولوجيا الرقمية أبدا، ولم تبقي عليه الإدارة في وظيفته إلا لمهارته في

بعدم الكذب. لذا سأخبرك بأن تلك الفتاة هي من أصبحت زوجة المستقبل. كان يمكنك معرفة ذلك بنفسك. وإلا فما سبب تذكري تلك الأغاني حتى الآن؟

توجيه الفنيين الجدد، ورفع التقارير عن كل شيء، حتى أهون الهفوات، بطريقة منظمة. لم يهوى الصحفيون العمل مع «ميرزا» بسبب عناده الشديد وعصبيته المماثلة. إلا أن «أليكسا» أعد تقاريره كلها مع «ميرزا»، بل واعتاد وصفه بأنه أعظم خبير بشرائط التسجيل. وفي المقابل، كان «أليكسا» هو الصحفي الوحيد الذي نال احترام «ميرزا».

سألته:

- كيف كان حال «أليكسا» قبيل مغادرته؟ هل لاحظت شيئا غير مألوف؟

كان يقف بوجه جامد ويقظ، يلف حول مرفقه سلكا سميكا.

- تبدل حاله مع بداية الحرب. تقوقع داخل نفسه، والتزم الصمت. قلت له أن يستيقظ، أخبرته بحاجتنا للأشخاص المحترفين في تلك الظروف الصعبة. فما كان منه إلا أن أجاب "حسنا، أنا هنا، لو احتاج أي شخص لأي شيء" وذهب إلى المنجم. اللعنة على هذا المنجم.

- واليوم السابق لرحيله؟

- لا شيء. لا، في الحقيقة هناك شيء، كنت أحتفظ به...

ووضع على المنضدة مفكرة ضخمة تحمل عنوان «كتاب ملاحظات صحفي في مهمة".

- تذكر ذلك، عندما كانت الإذاعة إذاعة حقا، اعتاد الصحفيون كتابة تلك الأشياء. حتى أثناء الحرب كان هناك نظام، لكن تأمل حالنا الآن...

نعم، كان «أليكسا» منظما... كما دون آخر أيام عمله... إنه رجل جاد. كل شيء هنا...

بدأت أقلب صفحات المفكرة، لكنه أغلقها براحة يده. ظننته سيبدأ حديثا عن ضرورة احترام القواعد وأنه لا يمكن قراءة المفكرة من قبل شخص غير مصرح له، لكنه قال:

- حسنا، خذها إلى البيت معك، ما عاد أحد يحتاج لتلك الأشياء هنا. لكن المهم، أخبرني، هل اتصل بك؟

لم أدري بما أخبره، لذا قلت:

- لا، لكن ابنته عادت و...

قاطعني:

- لم أتوقع منه ذلك. كان هناك العديد من الهاربين، غادروا في صمت، ثم هاجمونا بعد ذلك. لكني، لم أتوقع ذلك من «أليكسا». كان يمكنه على الأقل أن يتصل بي، كنا أصدقاء مقربين - كنا نحن المحطة...

انتظرته ليرفع يده عن المفكرة كي أتمكن من المغادرة.

- قل لابنته أن تخبره بأن «ميرزا» غاضب منه. لا تنسى... اذهب الآن، أنا مشغول، يتوجب على شخص ما العمل هنا.

فك السلك عن معصمه ثم بدأ على الفور في ثنيه مرة أخرى. وأثناء عبوري الممر، جاءني صوته منبها:

- لا تحتفظ بتلك المفكرة طويلا. يجب الحفاظ على شيء من النظام.

هرعت إلى البيت، أوشك أن أركض. وحتى مع انزلاقي عدة مرات، فقد تمكنت من بلوغ الشقة بالمفكرة سالمة. ودونما التفكير في خلع المعطف أو غطاء الرأس، جلست بلهفة إلى المنضدة وفتحتها. يتضح على الفور كون «أليكسا» أكثر مع علق في الدفتر اجتهادا، وأكثرهم مراعاة للنظام والدقة.

فعلى سبيل المثال، كتب «أليكسا» في ٢٥ مايو ١٩٩٢ ملاحظة:

سأنوه خلال البرنامج الرئيسي عن إسهامات الزميل س. م. في فعالية الربيع الخاصة بتنظيف المدينة. فقد نجح زميلنا الشاب في صبغ تقليد قديم بروح شبابية. مع خالص التهاني القلبية.

ولم يستسغ إحدى الفقرات في أخبار الـ٣٠ من مايو.

كان الحوار مع رئيس المنظمة غير الحكومية المتأزمة مرهقا، ومربكا تماما ولا منطقي أيضا.

ثم أكمل «أليكسا» الفاضل مضيفا:

أرى أنه لا داعي لإلقاء اللوم على زميلنا. فيمكننا بسهولة أن نستشف استعداده الجيد للحوار من خلال أسئلته، لكن من الواضح أن الطرف الآخر لا يعرف طبيعة المشكلة التي تواجهها منظمته. كما استخدم أثناء الحديث عبارات علمية في سياقات غير ملائمة.

أما زملاء «أليكسا»، فكانوا يفتقدون إلى المهنية في كتابة الملاحظات. فجاء التعليق على أخبار الثاني من يونيو كالتالي:

أحبك يا «ميريلا»!

وعلق الصحفي المناوب على برنامج الـ٦ من يونيو بعبارة:

تركت لك شريحتي جبن في خزانة الأطباق مع شرائط الكاسيت. تلك الأشياء الصفراء في الورقة مجرد معجون عدس.

تمتلئ بضع صفحات بجمل قصيرة تخص الألعاب الورقية، إضافة إلى عمليات حسابية بسيطة، وبخط كبير كان السؤال الوجودي التالي مكتوبا:

هل يعرف أحد ميعاد صرف المرتبات؟ أحتاج بعض السجائر؟

وجدت رسالة «أليكسا» الأخيرة قرب نهاية المفكرة، دونت في الثاني من أغسطس ١٩٣٣. كتب، بخطه المنظم السلس:

أشعر بالأسف لتلك الطريقة التي أودعكم بها، يا زملائي الأعزاء، لكنها الطريقة الوحيدة الممكنة. صدقوني، لم يكن هذا اختياري بل ألزمتني به رغبات الآخرين. أتمنى لو تفهمون قصدي. وإن لم يكن، فسيأتي يوم أعتذر فيه لكم بنفسي وأوضح الأمر. وتلك هي توصياتي، لو تسمحون لي:

يمكن لـ«ميرزا» أخذ جهاز الـ«أوهر» ومنحه لمن يشاء. إنه جهاز حساس، يجب التعامل معه بحرص لوجود عطب ما في سلك الميكروفون. كما أطلب من «ميرزا» التأكد من وضعية مؤشر «الفينيال» عند إغلاقه، وكذلك مؤشر سرعة التشكيل الدينامي. فقد يسفر تداخلهم عن عطل غير محمود. وأنصح بإسناد الولاية القضائية على صناعة التعدين إلى صحفي شاب. فظني أن فرص التحليل التفصيلي في موضوع المناجم المكشوفة ما تزال متاحة.

هذا كل ما لدي الآن. إلى اللقاء، قريبا.

ولكم التحية جميعا، من «أليكسا».

كانت تلك آخر تدوينة في المفكرة؛ ربما عثر عليها «ميرزا» في المكتب. إلا أن ذلك لا يكفل لي تفادي مواجهة أخرى مع الباب. يتوجب علي مواصلة البحث لإرضاء «ميرنا»، أحتاج إلى معلومة من شأنها إلقاء بعض الضوء على سر «أليكسا». نظرت عبر النافذة، وخطرت على بالي الفكرة فورا. في الواقع، لم يكن هذا صعبا. إنها تكملة القصة تتكشف أمام عيني.

* * *

يقيم «النملة» كما يطلق عليه العمال - أو«فيرن» كما يعرف رسميا - في عزبة أطل عليها يوميا من المطبخ أثناء جلوسي على الكرسي. مجموعة من المنازل منخفضة الارتفاع، توشك أسقفها أن تمس الأرض، يقال أنها شيدت فوق أنفاق منجم قديم، أو أن الأنفاق هي التي حفرت من تحتها؛ من الصعب تحديد أيهما جاء أولا، لكن ذلك - على أية حال - يعني احتمالية ابتلاع الأرض لتلك المستعمرة. وفي كل عام، تعلن سلطات المدينة عن النية لهدمها، لكن سرعان ما تتوقف التصريحات فور ذكر ضرورة توفير المساكن الجديدة للمقيمين. هكذا استمرت المنازل القديمة لسنوات، تطقطق لهبوب أهون الرياح، محصورة ما بين ساحات انتظار السيارات وحائط السوق. وعلى الرغم مما تعانيه العزبة من ضيق المساحة، إلا أن السكان واصلوا محاولاتهم العنيدة لتوسعة منازلهم. فقاموا بزيادة مساحة الحجرات الضيقة، وفتحوا أبوابا منخفضة ونوافذ صغيرة، وبنوا مصاطب هزيلة، وأضافوا إلى كل ذلك سلالم مرهقة وأسطح صغيرة. وبتلك التعديلات الشاذة - إن كان يمكن لتلك الكلمة وصفها - فقدت المنازل هيئتها الأصلية تماما، وانحرفت عن أساساتها وتشابكت معا. من بين أبواب تلك المستعمرة ما لا يناسب أبعاد الجسد البشري، وبعض النوافذ فتحت على غير حجرة لتجدد هواءها. وبينما أنظر إليهما الآن، تبدو لي أنها انبثقت من باطن الأرض بنفسها، وأن أسطحها اللامنطقية ليست في الواقع إلا قمما لمباني كبيرة تمتد في باطن الأرض.

قابلت «النملة» أثناء عملي كصحفي، كان حينها رئيسًا للنقابة. لم يظهر عليه الاندهاش عند زيارتي له. وحينما طلبت منه الإجابة عن عدد من الأسئلة، قال:

- ماذا دهاك بحق الجحيم؟ لقد تقاعدت.

ادعيت كذبًا كتابتي مقالة حول عمال المناجم السابقين. فوافق، ربما بدافع من الملل.

اضطررت لإحناء رأسي عند الباب، مررت فوق عتبة عالية وغصت في أرضية متخلخلة تهتز من تحت أقدامنا. قابلتني نتيجة حائط من عام ١٩٨٣ تحمل صورة «بيلانا جوفيتش» متقمصة هيئة «كيم وايلد». تغطي النتيجة شرخ كبير يشوه الجدار الواقع خلف تلفاز صغير. يكفي الشرخ لاستيعاب عدد من الأقلام، بل وربما بعض الأشياء الأكبر حجما.

جلس كل منا على كرسي، وفيما بيننا كانت منضدة منخفضة. كانت تلك الأشياء، إضافة إلى ملصقات المغنيين، والدولاب والتلفاز، هي كل ما تحويه الغرفة الصغيرة.

- لا أشرب الكحول ولا القهوة ولا أدخن منذ تقاعدي. لكن يمكنني تقديم البسكويت والماء، لو كنت ترغب.

أخرج من الدولاب الصغير عبوة بسكويت شاي تشاركناها معا. ثم جلسنا صامتين، نزيل الفتات من على الياقات ونبتلعها بين الحين والآخر، إلى أن قررنا بدء اللقاء الصحفي الزائف، وهو - للأمانة - ما لم أجيده حتى في قمة مشواري المهني.

- كم يبلغ معاشك؟

- مائتا وثمانون مارك ألماني.

- هل تكفي لتغطية النفقات؟

- لقد مررت بفترات أشد سوءًا.

- كيف كان العمل في المناجم عندما كنت عاملًا شابًا؟

- كما هو الآن، بالمجرفة.

- أجمل ذكريات التعدين؟

- رفقة الزملاء

- يوم لن تنساه؟

- عندما أخرجت جثث زملائي الموتى.

- ماذا تقول للعمال الشباب؟

- حظا سعيدا.

- هل يمكننا بلوغ السوق الأوروبي بمناجم كهذه؟

- لا يمكننا بلوغ أي شيء.

- هل لديك ما تود قوله للقراء؟

- لا، لا شيء.

طويت الورقة التي كتبت فيها إجاباته، بما يعني انتهاء الجزء الرسمي من المقابلة، وعلى الفور ألقى «النملة» بقطعة بسكويت في فمه.

سألته لو كان يتذكر «أليكسا».

- كيف لا أذكره؟ اعتاد خلال الحرب أن يجلب لي ذلك التبغ الهولندي الأسود. لم يسبق لي ودخنت شيئا بهذه الجودة.

أغلق عينيه السوداوين.

فتحهما لما سألته عما كانا يتحدثان.

- أراد معرفة الأشياء غير العادية التي رأيتها في المنجم. لم يكن لدي ما أخبره به... أقوم بغلق عيني قبل النزول في حفرة التعدين، كسائق سيارة أمام نفق، ويخيل إلي أني أفتحهما عند الخروج فقط. عندما أفكر في ذلك الآن، يبدو لي كأني أبدا ما فتحتهما خلال الحرب. شيء من الظلمة يشوب تلك الفترة بأكملها.

- لماذا منعته من نزول المنجم؟

احمرت مقدمة رأسه وانتصبت بضع خصلات من شعره. بدأت أشعر بالبرد في قدمي. كانت البرودة صادرة من بلاط الأرضية.

- هذا غير صحيح؛ بل منعته من هبوط المنجم المكشوف.

- ألم يكن مغلقا حينئذ؟

- بلى، لكن بعض حفر التعدين ظلت مفتوحة. وكنت أخشى أمورا أخرى. فقد جرت هناك أشياء غريبة.

- أي نوع من الأشياء الغريبة؟

تحركت الشعرات على قمة رأسه، كقرون استشعار صغيرة.

- أمور فظيعة.

- أي نوع من الأمور، أخبرني.

- بماذا أخبرك؟ ما الذي تريد مني قوله؟ أشياء غريبة، وكريهة...

- ما وجه الغرابة؟

ليس الإلحاح من عادتي، لكنه لم يكن ظرفا عاديا.

- وما الذي لم يكن غريبا أثناء الحرب؟ عليك اللعنة، أخبرني بشيء واحد عادي!

تمكنت بالفعل من التوصل إلى عدد من الأشياء العادية. على سبيل المثال، كل ما أردناه خلال الحرب كان النجاة بأرواحنا. إن لم تكن تلك حاجة عادية، فلست أدري أي حاجة أخرى قد تكون. وبانتهاء الحرب عادت البقية. كان ذلك أكثر ما توصلت إليه أهمية في تلك اللحظة. كانت البقية أمور شديدة الخصوصية. هممت بإخبار «النملة» بما جال بخاطري، لكنه انزلق من على الكرسي وقال:

- معذرة الآن، فلدي ما أقوم به. صحيح أني متقاعد، لكني لا أعيش عبثا.

أوصلني إلى الباب وسألني:

- كيف حال «أليكسا»؟ بلغه تحياتي عندما تراه. أخبره أني ما زلت أذكر ذلك التبغ.

- سأفعل ذلك، ما أن أراه.

•

ولا كانت تلك الزيارة - هي الأخرى - كافية لإرضاء «ميرنا». أدركت ضرورة استعدادي جيدا ليوم آخر، وأن أكثر ما يستحق اهتمامي الآن هو الحصول على ليلة من النوم الهانئ.

بدلت المفارش، واستحممت، وارتديت بيجاما نظيفة، وشربت شاي الكاموميل واستلقيت. لكني بمجرد ملامستي الفراش أدركت أني لن أستطيع النوم. صحيح أني أطفئت النور، لكن الظلام لم يشملني، ولا أصبحت الحجرة صندوقا لذيذا. صارت أكبر بعشر مرات، واستحالت فضاءا رهيبا: سهل أجرد، صحراء الـ«تاندرا»، شيء بنفس البرودة، شاسع لكنه يزخر بالقلق. أو أنها - على سبيل التوضيح - صارت كسهول الـ«فوفودينا» خريفا. ذهبت إلى هناك من قبل، لذا أعرف كيف هي. بدأت أسترق السمع، أصغي لأدنى الأصوات، وأدفع النوم بعيدا. نهضت من على الفراش وتناولت كتابا، كتاب سبق واستمتعت بقراءته منذ زمن بعيد، كتاب لن يسبب لي إزعاجا، كتاب لا تحمل عباراته سوى الراحة والهدوء... لا

أستطيع تذكره، لكن هذا لا يهم، فهو لم يفيد؛ كان القلق يسكن الشقة ويزيد من أرقي. لذا تحتم علي معاودة تحليل الوقائع التي قادتني إلى الوحدة. حاولت استرجاع النقاشات لأفتش عن بذور الفساد، فتذكرت إحدى الأمسيات، عندما كنت أطالع الكتيب الإرشادي للتلفاز، حين قالت:

- حبك لي لا يماثل مقدار حبي لك، أنا متأكدة.

لم يكن مزاجي ساعتها يسمح بتلك النوعية من النقاشات، كنت منهمكا في قراءة قائمة أفلام الأمسية في الكتيب.[15] أذكر أنها كررت العبارة، بنبرة الصوت نفسها. ففهمت أن تهربي من الإجابة غير ممكن.

- ماذا تعنين بذلك؟

- لا أعني سوى ما قلته. ببساطة، لا أصدق أنك تحبني.

- حسنًا، ما الذي يمكنني فعله الآن؟ كيف يمكنني إقناعك؟

- هذه ليست مشكلتي.

قالت ذلك، والتقطت الريموت.

انتهى النقاش بهذه الصورة؛ عدت لقراءة الكتيب، أما هي فـ... لا أذكر.

---

[15] أظن أنه نوع شيق من الأدب. أقدر من يكتبونه وأرى أنهم يستحقون شيئا من الشهرة، فأحيانا ما تكتب تلك النصوص الصغيرة بطريقة بالغة الاحترافية. يمكنهم بثلاث جمل تلخيص أعقد أعمال الدراما العائلية، أو الملحميات التاريخية.

لا أدري - حتى الآن - أي إجابة كان يتوجب علي قولها، أو أي فعل كان علي القيام به. لكن كان لزاما علي فعل أي شيء. في واحد من الأفلام التي نسيت اسمها، يحتضن «ميكي رورك» فتاة عمياء. تخبره بمدى السعادة التي كانت لتشعر بها لو أنها تمكنت من رؤية وجهه. فكر «ميكي» لبرهة، ثم تناول المصباح من على المنضدة الصغيرة ورفعها إلى وجهه. كان يجب علي القيام بشيء مشابه. أي شيء. فذلك أفضل من اللاشيء.

استلقيت يقظا طوال الليل. لكني أتذكر حلما رأيته، فقد ذكرني به الصباح بطريقة ما. فاستنتجت من ذلك أني وبالرغم من كل شيء، قد نمت، ليس نومًا عميقًا، لكنه كافي لرؤية كابوس.

حلمت مرة أخرى بالرجل الكبير العينين. لم أر غير وجهه، يطل من خلف أعلى نوافذ مدرسة الموسيقى. تتحرك شفتاه. وترسم الكلمات الصادرة عن فمه أشكالا مختلفة من أثر البخار. ووقفت في ساحة المدرسة أصيح:

- ها قد تحدث «مصطفى»: إنه ليس خطأي!

تسطع شمس من الورق الذهبي في السماء البرتقالية. وتثقب أشعتها الحارقة ذراعي.

كنت أحلم، فأي شيء كان ليحدث عدا ذلك؟

لم أغادر غرفة النوم. بدا المكان فظيعا، كأنما مكث الأرق فيه وانفجر مُصدرًا غازاته السامة. كانت مفارش السرير مجعدة، والوسائد فظيعة

الرائحة. يقولون أن رائحة عرق المجنون نفاذة. وكان لعرقي رائحة البطاطس الفاسدة.

خرجت إلى الصالة فيما بعد لأجد آثار أحذية قذرة على الأرض. كانت شديدة الوضوح، تشبه آثار أقدام الراقصين. ميزت فيهم زوجي أقدام. أحدهما صغير، يرتدي صاحبه حذاءًا مدبب الرأس. وآخر كبير مستدير الرأس. كانت الآثار تملأ الحجرة، كلها، وكان من السهل تتبعها وملاحظة توقفها عند الأرفف، والصور، والأدراج... يمكن للمرء استنتاج الأشياء التي نظروا إليها، وتلك التي أثارت اهتمامهم... لكني لا أملك الوقت للتفكير في ذلك. كانت «ميرنا» بانتظاري.

أدركت بالنظر عبر النافذة، أن شيئا لم يتغير في الخارج. ما يزال رجل الثلج واقفا في مكانه، صلبا قويا، كالسماء الفولاذية التي تعلوه. وراح سرب حمام داجن يطير من فوق السطح. مندفعًا يخترق الأعالي بتشكيل مدبب، لكن أفراده تناثروا بعد أمتار قليلة، كأنما اصطدموا بحائط منيع.

قررت عدم مقابلة «ميرنا». فبعد ليلة كتلك، لم تكن بي طاقة لأي جهد إضافي. نويت التحجج بعدم الاستطاعة، وربما بالمرض، سأتوصل لفكرة ما...[16] اعتدت استخدام وسائل مختلفة للتهرب من الالتزامات، إلا أن لدي

---

[16] تجنبت الالتزامات طوال حياتي، وقمت بتأجيلها حتى اللحظات الأخيرة. لن يساور الرجل الرصين شك حيال مسار حياته الأمثل. يعرف دوما طريقه، ومنذ طفولته يشحذ طاقته. ومع أول علامات البلوغ يبدأ تنفيذ الخطة:

تعليم لأجل مهنة مربحة – تجارب حذرة مع المخدرات الخفيفة، والعري، والجنس – وظيفة – البحث عن الفتاة الملائمة، الصحيحة، الناضجة، الموفرة – الزواج – شراء شقة مربحة – اختيار الأثاث والأجهزة الكهربائية – ميلاد أول طفل، ذكر لو أمكن – شراء سيارة – ميلاد

هذه المرة سبب وجيه، فقد عانيت من الأرق ليلًا، وكنت مجهدًا... تعهدت أمام نفسي بمعاودة الطرق على باب «أليكسا» غدا، فور شعوري بالتحسن.

تحرقني عيوني من قلة النوم، ويجيش الغثيان في معدتي. كنت ضعيفا، يهتز كامل جسدي، كنت أتآكل كمصاصة في الفم... كنوع من التشبيه اللذيذ. شعرت بالعجز عن مواجهة الباب ثانية وأنا على هذه الحالة من الوهن، ناهيك عما سأواجه بالداخل. يلزمني - بدلا من ذلك - القيام ببعض التسوق، للحصول على الطعام، والقوة. لم يبقى في البيت طعام يصلح للأكل.

أكره زيارة المحلات، وبخاصة تلك المتاجر الكبيرة، التي تبدو لي مكونة من قطع المكعبات. يهيم الناس بين الرفوف كالسائحين، يبدون الإعجاب بالأغلفة المصنعة وفقا لذوق جمالي متوسط المستوى؛ ينتقون البضائع التي تلمع كالمجوهرات، ذات الألوان المتعددة كطحالب «ناشيونال جيوجرافيك» النادرة، يحملون أشياء مجرد قضمها خطيئة، يكسرونها لأجزاء ويتركونها لتنزلق عبر الجهاز الهضمي المقزز. يجرون الحسابات في أذهانهم، ويقرؤون الإرشادات، والرسائل الإعلانية،

الطفل الثاني، تكون الفتاة مثالية لاكتمال صورة الأسرة المثالية - شراء شاليه للعطلات - العثور على عشيقة عاقلة - تربية كلب، لإضافة لمسة جمال تكميلية - الشجار حول التعليم المناسب للأبناء - وظيفة للأبناء - دور توجيهي في اختيار شركاء حياة الأبناء - السعادة لوصول أول الأحفاد - تحول شاليه العطلات إلى خلية نحل - الاستعداد للوفاة - الوفاة

تلزمني ثلاث حياوات لتنفيذ تلك الخطة. على أقل تقدير. إنها خطة محمومة، بجدول زمني مزدحم، بلا استراحة، ولا فرصة للتفكير، مع افتراض غياب نوبات الاكتئاب، والجنون. كل شيء محدد وواضح، كمشرط الجراحة. معقم وحاسم.

ويتناقشون حول المنتج، والتغليف المزدوج، وتاريخ انتهاء الصلاحية، والفيتامينات المتضمنة، ومكسبات الطعم المخلقة، والمواد الحافظة، والحموضة. مشاورتهم الرفاق، والباعة، وطلبهم النصيحة من أصحاب المحلات، ثم الاستماع بارتياب. يضعون مشترياتهم في السلال عدة مرات، يخرجونها ثانية، يقارنوها بشبيهاتها، ثم يعيدونها في السلة أو يستبدلونها، ويدفعون المال وهم ما زالوا غير واثقين من صحة اختياراتهم. لم أكن - لحسن الحظ - أعاني من التردد. قررت تناول طعام ثابت، للتقليل من عدد القرارات اليومية، وبالتالي تقليل درجة التوتر. جعلت بسكويت الشاي وجبتي الرئيسية. تناولته لأشهر. اعتدت عليه، وصار تصوري لأي غذاء غيره كفيل بإثارة غثياني. لا تأكل الذئاب سوى اللحم ولا تأكل الأبقار سوى العشب، وكلاهما يعيش سعيدا.[17]

توجهت لزيارة «أحمد»، تاركًا متاهة الأرفف، حاملًا عبوات البسكويت في جيبي.

"اعتاد الحاخامات القول إن الذي لا يخشى عظمة خالقه ويبحث عما فوقه، وأسفل منه، وأمامه وخلفه، لا يستحق شهود ضوء النهار". أثق أن تذكري عبارة «أحمد» كان دقيقًا. فهي المرة الأولى، التي يخطر على بالي فيها احتمال وقوع أمر فظيع لـ«أليكسا».

---

[17] لا يصيبهم السوء إلا عندما يعبث البشر بنظامهم الغذائي. يقوم البروتين الحيواني بنفخ تلك الأبقار المسكينة، والنباتية منذ مولدها، لتصل في ستة أشهر إلى حجم لم تكن لتبلغه بنظامها الغذائي العادي إلا بعد عامين.

وجدت «أحمد» في مكتبه؛ غرفة صغيرة ترقد في ركن المكتبة. قابلته أثناء عملي في الصحافة، إلا أن تلك المعرفة السطحية كانت كافيه ليستقبلني بتحية حارة. أجلسني على مقعد متهالك. ورأيت على المنضدة التي تتوسطنا لعبة شطرنج مغناطيسية. استنتجت من أماكن القطع أن مباراة ما قد انتصفت، لكن مواضع القطع أربكتني، فلم أستطع تحديد الطرف المتقدم. لم أتعلم لعب الشطرنج أبدا، عرفت الكيفية التي تتحرك بها القطع فقط. لكن كثيرًا ما يطلب الناس مني اللعب، وهذا مرجعه في الأغلب إلى رغبة في إثبات الذات. كان المكتب منظما ومتواضعا. صب «أحمد» بعض من البراندي، كان رائعا حقا، كهواء جزيرة استوائية. صب الماء في كوبه أولا، ثم بضع قطرات من البراندي لا غير.

قال موضحا:

- لا يمكنني الشرب بسبب كليتي. فقط أستطيع تذوق القليل منه، كما أفعل الآن.

كان الشراب لذيذًا، وشعرت بالنوم يغشاني. ثم رأيت الصورة.

كانت تتدلى خلف «أحمد»، قديمة؛ ذهب اللمعان عن ألوانها الزيتية منذ زمن. وعلى قطعة القماش رسم لحصان نحيف، على طريقة رسومات «جورج أندريفيتش كونا». لكن الجواد لم يكن يحمل على صهوته أي مريض بالتيفوس، بل كان يقف وحيدا في العتمة، ووحدها عيونه البليدة

يمكن تبينها في الظلام. ما أن فهمت الصورة حتى جف فمي تماما: كان حصان منجم أعمى، حيوان مسكين يحسب العالم نفقا مظلما.

ولما كان «أحمد» ينظر إلي، اضطررت لكتم مشاعري بسرعة. كان به شبها من «أليكسا». ربما هم الأصدقاء، كما الأزواج وزوجاتهم أو الكلاب وأربابهم، يزدادون شبها ببعضهم البعض من طول الملازمة. كان يداعب رأس ملكة شطرنج ضئيلة بأحد إبهاميه، ويدير الآخر على حافة الكوب.

أخبرته بعودة «ميرنا» للمدينة وسؤالها عن والدها.

أصدر تنهيدة تخلخل لعمقها هواء الغرفة. وهمس حزينا:

- إذا، صار الأمر جليا الآن، لم يكن «أليكسا» معهم.

اكتفيت بإيماءة من رأسي.

- شعرت بذلك، كان ليتصل بي حتما. أود رؤية «ميرنا»، أين هي؟

أردت الإجابة، لكني أدركت لحظتها فقط جهلي بمكان «ميرنا». كانت هي من تبادر بالظهور دوما. همست:

- إنها هنا، في المدينة.

غمرنا الصمت بعدها. وسألت نفسي بعد أن راح عني أثر البراندي، ماذا بعد. ثم قلت، لمجرد المناسبة:

- كما أعطتني مذكرات «أليكسا».

ارتفع إصبع «أحمد» عن رأس الملكة. أضفت:

- أعرف بأمر بحثك عن «بيركمان».

نهض من على كرسيه. كان يفوقني طولا بشبر وشيء يسير. سألني:

- أتدري ماذا يكون «بيركمان»؟

- نعم.

جاوبته بكل ما أوتيت من ثبات؛ محاولًا الصمود أمام نظرته، رغم إحساسي بحكة بين حاجبي.

- لكنك لم تره أبدا؟

كان جادًا، أذكر ذلك، كما كان منفعلًا.

- لا، لم أره. لكن سأراه.

كنت جادًا أيضا.

عندها جلس - وكأنما طمأنته الإجابة - وأحنى رأسه، وحدق برقعة الشطرنج. وحينما عاود النظر إلي، رأيت على وجهه ابتسامة لا أملك إلا أن أصفها الآن بـ«ما قبل بيركمان». ثم غادر كرسيه وذهب لخزانة الملفات المعدنية. وقال بأسلوب مسرحي:

- أؤمن بوجود عوالم تفوق عالمنا سموا وبأن هناك من الكائنات ما تسكن تلك العوالم. أؤمن بقدرتنا على التواصل مع كائنات أعلى، بمقدار درجة تناغمنا الروحي.

لم يفتح الخزانة ويبدأ في إخراج الدفاتر إلا بعد انتهاءه من تلك الكلمات، التي اعتبرتها حينئذ - ودونما علم بمصدرها - نوع من أنواع القسم.[18] وكوم بحرص على المنضدة من تلك الدفاتر خمسين أو يزيد.

أخبرني من فوق تل الأوراق، وبفخر واضح، أن في تلك الدفاتر قوائم بكل الشياطين، والأشباح، والأرواح، ومصاصي الدماء، والمستذئبين، والمشعوذات، والجنيات والكائنات المشابهة التي ظهرت في البوسنة والهرسك على مدى الخمسين عامًا الماضية. ودونت ضمن ذلك واقعة «منزل الأشباح»، تلك الأطلال التي تعلو محطة القطار في «دوبوي»، حيث قضى «أحمد» ليلته بينما يحتفل سائر البشر ببداية القرن الحادي والعشرين. تحوي الملفات وصفًا لكل معارك جبابرة السماء عند جدار «نيميلا» الأبيض، وظهور

---

[18] قام «أحمد» باقتباس الكلمات من قصيدة للشاعر البرتغالي «فيرناندو بيسوا»: ذكر الشاعر امتلاكه لقوى إبصار أثيرية يستطيع عن طريقها رؤية الهالة المغناطيسية منعكسة على المرآة، أو تشع من يديه في الظلام. وأنه في ذروة قواه الأثيرية تلك، تمكن من رؤية أضلع رجل عبر معطفه وجلده، وانه يرى أشكالا ورسومات وعلامات وأرقام غريبة، عندما يغمض عينيه ليلا.
كان يعيش في خوف وجنون دائمين. وأشار قائلا:
"إحدى مشكلاتي العقلية - التي لا يمكن وصفها من فرط فظاعتها - هي الخوف من الجنون، وهي في حقيقتها ضرب من الجنون".

وبعد وفاته، تم العثور على ٢٥ ألف ملاحظة دونها «بيسوا»، موزعة ما بين وريقات صغيرة، أو أظرف قديمة، أو على أظهر الرسائل.

العمالقة في «جراداتشاس» و«ليستيتشا»، والروح الرومانية «بوهالا» عند «توزلا» (على ما أتذكر)، وظهور سكان مقبرة «فراندوك»، وإيمان ملاحدة «جيبا» اللوثريين. كما تحوي حكاياته الخاصة بصائدي مصاصي الدماء من «كراجينا»، الذين قضى معهم شتاء عام ١٩٦٨. كما ناقش في ملف آخر أسطورة «يوري جراندو»، مصاص دماء «كريجا»، الذي بحث حالته خلال عطلة صيفية في «إيستريا». كان يتحدث بسرعة؛ وحكى أشياءً أخرى، لكني أعجز عن تذكر كل شيء. وفي المرة الأولى في حياتي التي أستمع فيها لقصة خلابة، لم يكن بحوزتي جهاز تسجيل.

قال بهدوء:

- قضيت عمري أجمع تلك الحكايات.

ثم فتح عينيه على مصراعيهما وزأر:

- لكني أبدًا لم أرى شيئًا، ولا مرةً واحدة! لماذا تظن نفسك أفضل مني؟

التزمتِ الصمت؛ كنت أشعر بالذنب، كأنما تفوهت بكذبة شنعاء. لكني أردفت بعد ذلك:

- من هم «يأجوج» و«مأجوج»؟

جلس «أحمد» على الكرسي وفكر بسرعة. رأيته يعض شفته. ثم وقف فجأة، وسحب معطفه وتوجه إلى الباب:

- فلنتحدث في مكان آخر.

•

كان العجوز يجر قدميه أمامي، وكنت أتبعه، مترنحًا فوق الطريق الجليدي، متهالكًا ونعسانا. لم يكن هناك أحد في الطريق، وتصدر المدينة من حولنا طنينها كماكينة على وضعية الانتظار. أخيراً، وصلنا إلى مقهى صغير؛ مكان لم ألحظه من قبل رغم ارتيادي هذا الطريق لسنوات. كان المقهى جذاب، مفروش بسجادة سميكة، به بار خشبي قديم، وستائر فخمة ثقيلة، ومقاعد عالية، وصور داخل براويز بيضاوية (كانت صوراً شخصية، لكن لم أميز صاحبها)، وحوامل للصحف. تراقص النادل النحيف ذو الصديري والرقع السوداء أثناء توجهه إلينا بفوطة على ساعده وحاجب مرفوع. صب لنا البراندي نفسه الذي كنا نشربه في المكتبة. وشعرت أنه مكان يمكنني الاسترخاء فيه. بدا لي كأنما تباطأ الوقت فجأة، دونما إدراك مني للسبب أو الوسيلة.

سألني فور ابتعاد النادل:

- أتعرف من هم الأخوين «بيجاسوس»؟

- بالتأكيد أعرفهم. كل المدينة تعرفهم.

* * *



حكاية الأخوين «بيجاسوس»*

سكن «آدم» و«باديما بيجاسوس» العزبة الصغيرة قرب مصنع الفولاذ. كان «آدم» ضخمًا، خراطًا متجهم الوجه نادر الابتسامة. ولما كان كلامه أكثر ندرة، كان يصعب الإخبار بالمزيد عنه. كانت زوجته «باديما» رائعة الجمال، لها جسد مثالي الأبعاد وأكثر ملامح الوجوه تناغمًا. لم يكتشف أحد المكان الذي أتى بها «آدم» منه، لكن ما أن خرجت للساحة أول مرة، حتى انتشرت أخبار جمالها المثير بين البيوت الصغيرة بسرعة لم يعرف لها مثيل من قبل. وصار الممر الترابي أمام منزل «بيجاسوس» هو الممشى المفضل لسكان العزبة جميعهم، لينظروا إلي «باديما» من أعلى الرأس إلى أسفل القدم ويحتفظوا بصورتها البديعة في الذاكرة، يبغون بها تجميل أيامهم الحزينة. كانت هي نقطة تلاقي أحلام سكان العزبة الجنسية، أجمل من أي مذيعة تلفزيونية، وأكثر إغراءًا من فتيات اليانصيب، وأشد تلألأً من الفاتنات على علب الشوكولاتة. كانت تسير بتأنق، وخيلاء نافذ، بين أحواض الاستحمام المملوءة بالثقوب، وسخانات المياه برتقالية اللون، والحشيش السام، وإطارات العربات القديمة، والكرنب المعلب، والأقزام البلاستيكية، وما يشبه ذلك من التصميمات الخاصة بالعزبة. ويصير النحيب والتبسم في نفس الوقت - من فرط الجمال - ممكنًا، إذا ما ألقت بشعرها الأسود الكثيف وراءها، ورسمت عليه الشمس كل الألوان الممكنة. تفجر ضحكاتها العفوية، وانحناءات جسدها غير المتعمدة، أكثر خيالات الشباب تهتكًا، ويجز لهما الرجال على

* «بيجاسوس»: حصان مجنح أسطوري في الميثولوجيا الإغريقية. - المترجم

أسنانهم. لكن سرعان ما توجهت النسوة الأكبر سنًا بكامل كراهيتهن نحوها، وأخذن يهمسن إذا ما مرت بهن يغتبنها، وتبعتها الفتيات الصغيرات في مجموعات يحاكين باستهزاء حركاتها. لم تلاحظ «باديما» هذا الاهتمام، أو هي على الأحرى تظاهرت بعدم الملاحظة. لا تخرج إلا نادرًا؛ يراها الجيران في الغالب تغسل زهور فنائها من الغبار الأسود، أو تنتظر عودة زوجها من المصنع عند النافذة. كانت دومًا وحيدة...

ومع ذلك، لم تفارق الغيرة «آدم» يومًا؛ كان دائم التفتيش عن الدخلاء، خوفا من فقد فاتنته؛ يرجع من عمله في أوقات غريبة، ويفتح باب المنزل بعنف، ويفتش في الحجرات دون خلع ملابسه أو الحذاء. كما شوهد يتجسس على المنزل من بين الأحراش المجاورة، ويزحف أسفل النافذة. يقولون أنه ضحك للمرة الأولى في حياته عندما علم بحمل «باديما»، وشرب المصنع لثلاثة أيام متواصلة نخب فرحته التي تضاعفت باكتشافه حمل «باديما» توأمين. أسماهما «أهلوبين» و«علاء الدين»، عشقهما، يوشك أن يركض أثناء عودته من العمل للبيت، حتى أنه تولى نشر حفاضات الأطفال بنفسه على حبل الغسيل في الفناء. كانت أسرة جميلة، كان هي زينة العزبة كلها.

لكن المأساة بدأت مع أولى خصلات الشعر الأبيض في رؤوس الأطفال. فقد كان العهد في رؤوس آل «بيجاسوس» حتى ذلك الحين سواد الشعر، مما جعل الوالد يستنتج على الفور استحالة نسب هذين الطفلين إليه. وكمحاولة من الجيران لتهدئته، أخبروه بأن هذا يقع أحيانا، وأن الشعر سيسود فور شروعهما في السير.

قال «آدم» لـ«باديما»:

- لو لم يسود شعر الأطفال عندئذ، فستفقدين حياتك.

وبينما يترقب خطواتهما الأولى، استعان الأب بالبراندي لتهدئة أعصابه. ونما قلقه مع نمو الطفلين، فتعاظمت حاجته للكحول. وفي ليلة من الليالي، أمسك الشقيقان بيد بعضهما البعض، ونهضا من على الأرض بغير ثبات وتوجها ببطء نحو والدهما، الذي كان يشاهد ساعتها التلفاز. وبينما كانا يتمايلان على أقدامهما الصغيرة، كانت الخصلات البيضاء تتراقص على رأسيهما. دفعهما «آدم» بعيدا فسقطا أرضًا؛ وأطلقا صراخًا كالعرائس المطاطية. في تلك الليلة ضُرِبَت «باديما» للمرة الأولى... ومن بعدها، راح «آدم» يضربها بصورة يومية، بلا استثناء. قامت «باديما» بقص شعر الطفلين حتى فروة الرأس، فعلت هذا للحد من غضبه، إلا أن الأب كان يميز الزغب الأبيض بسهولة ثم يضربها بمزيد من القسوة. وبينما تكون العزبة هادئة ساعة الغروب، وتجلس الأسر لتناول وجبة المساء، كان صراخها يعلن بداية الليلة؛ فلا يتوقف إلا عند منتصف الليل، مع استنفاد «آدم» لقوته. لم يحاول أحد من العزبة مساعدة المرأة المسكينة. يرى الرجال خطورة التدخل في خلافات زوجية لا تعنيهم، وتجد في ذلك النساء شيئًا من العدل، فقد كان جمالها ظالمًا لهن. ومع مرور الوقت، اعتاد السكان صوت صراخها، بالضبط كما أَلِفُوا طرق المعادن الثقيلة وصوته المدوي الصادر عن المصنع.

كبر الأولاد، ببياض كبياض الثياب في إعلانات مساحيق الغسيل. كانوا بمفردهما دوما؛ تستغرق «باديما» النهار للتعافي من أثر الضرب،

ويتجنبهم سائر الأطفال، طاعة لأمهاتهم. يهيم التوأمين بين المنازل كأشباح صغيرة ويبتكرا ألعابهما الخاصة. تعلما الأحياء عبر إخراج أحشاء الضفادع الحية، وأجريا أبحاث ديناميكا الهواء عبر نتف أجنحة العصافير، واختبرا درجة احتمال الكائنات عبر تسليط الضوء على قطط مقيدة، وإلقاء الحجارة على الكلاب... أحبا رؤية الحياة تخبو في أعين الحيوانات، وتنافسا أيهما يلحظ ظلال الموت أولا.

هربت الحيوانات منهما، وتجنبا بدورهما البشر. كذا تظاهر الجيران بعدم رؤيتهما، إلى أن بدأت الأشياء تختفي من العزبة: دراجات، وملابس، وفطائر على النافذة، وفاكهة نيئة من الأشجار، وشباشب أمام الأبواب، وأدوات منسية بين الأعشاب... لم تستغرق العزبة وقتًا طويلا في التفكير، فقد استنتج الجميع أن الأخوين «بيجاسوس» هم الجناة، واتفقوا على الحل داخل الجمعية التعاونية. جرى في الاجتماع (الذي شهد يومها أكبر حضور) مناقشة سبل "تهذيب الولدين"، تحت بند «الشئون جارية»، بعد الانتهاء من الجدل حول الإستراتيجية المثلى لجمع القمامة.

كان الوقت مساءًا عندما أعد السكان فخًا. جلسوا ينتظرون التوأمين في زقاق مظلم مسدود، ثم أحاطوا بهما وضربوهما بالعصي والأحزمة وأدوات المطبخ - كل ما أمكنهم العثور عليه في المنزل. امتزجت صرخات التوأمين بصراخ «باديما»، التي تقاسي ضربات «آدم» على بعد عشرين مترا أو يزيد. توقف الضرب مع فقدان الولدين وعيهما، ولم تزل في فرقة التأديب من القوة بقية؛ كان جميعهم رجال بالغون أشداء، أصحاب حرف، كان باستطاعتهم مواصلة الضرب حتى الصباح؛ لكن الأمر ما

عاد مسليا، وانتهى الدرس. تفرقوا مبتهجين، يثرثرون، وابتعدوا يحملون أسلحتهم على الأكتاف، كالفلاحين عقب الحصاد. وعلى الأرض الترابية خلفهم، في ظلمة الليل، يتمدد جسدين صغيرين بلا حراك.

تمكن الولدين من العودة إلى المنزل بطريقة ما، ولمدة تقارب العام اختفيا عن الأنظار تمامًا. لا يدري أحد كيف تعافيا. لكن الجميع يذكر الصباح الذي خرجا فيه لضوء النهار ثانية. وقفا أمام الباب، بلا حركة تذكر، في مستطيل الظل الناتج عن المنزل. يقول البعض إنهما وقفا كذلك لعشر دقائق، ويقسم آخرون بأنها كانت نصف ساعة، وهناك من يردد بعناد أن الأخوين «بيجاسوس» وقفا هناك لساعةٍ كاملة. هذا كله لا يهم، بل المهم أنهما اتخذا في نفس الآن خطوة للأمام، غادرا بها الظل ووقفا تحت ضوء الشمس، كان ذلك بعد أن استعدا تماما بكل تأكيد. وعلى رأسيهما انعكس ضوء الشمس. كان لهما شعر أحمر اللون تماما! لكن اللون ما عادت له تلك الأهمية؛ سواء كان أبيض أو أسود، لا يهم الآن. حصل «آدم» على حكم بالسجن المؤبد لقتله زوجته، وترقد «باديما» أسفل شاهد قبر خشبي في مقبرة التل أعلى المصنع. مكث الولدين في الشمس بضع دقائق، ولما سارا في الطرقات، أغلقت كل العزبة الأبواب والنوافذ. صمتت وسكنت كل الأحياء أثناء مرورهما. وحده المذياع أمكن سماعه يبث الأغاني الشعبية المعتادة خلال النوافذ، وفي ذلك النهار ولد أسوء المجرمون في تاريخ المدينة.

جثة «أهلوبين» ضخمة، مصبوبة كسد منيع، وله قبضة هائلة وعنق سميكة. أما «علاء الدين» فنحيف ضيق المنكبين ونحيل اليدين. لكل منهما وجه عريض يسع زوجين إضافيين من العيون. عيناهما دقيقتان؛ عينا «أهلوبين» لامعتين وقلقتين؛ بينما تشبه عينا «علاء الدين» عيون أسماك القرش - خاوية وباردة، ما أن يفتح فمه الصغير حاد الأسنان حتى تحجبها أجفان شفافة، كأجفان القرش.

ربما لم يكن «أهلوبين» أقوى رجال المدينة، لكن الجميع يعرف أنه لا ينسى. يدرك كل من يتشاجر معه أن إنهاء الأمر في حينه هو الفعل الأمثل، وإلا فسيعود «أهلوبين» - بلا شك - ليكمل ما بدأه. يقولون أن «علاء الدين» وعلى مدار حياته ما أحب شيئا أو شخصًا قط. لا يهتم إلا بـ«أهلوبين»، وهذا مرجعه إلى العادة فقط. يقولون بأنهما يعشقا تعذيب البشر وأنهما يتعاملا معهم معاملتهما الحيوانات من قبل. يقولون أنهما أتقنا فنون الموت حتى صار بإمكانهما الحفاظ على ضحاياهما لأيام، على الحد الدقيق الفاصل بين العالمين، ثم إعادتهم للحياة في اللحظة الأخيرة. أو دفعهم ناحية الموت. أيًا ما شاءا...

سهلت تلك القصص إحكام الأخوين «بيجاسوس» لقبضتهما على المدينة، بدون أية مشاكل. يقدم لهما جميع تجار وباعة المدينة نسبة من الإيراد، ويفضلون الإفلاس عن أي عجز في تلك المدفوعات. كما تغض الشرطة البصر عن منطقة نفوذهما، فالأخوين يديرا العالم السفلي أيضا. يبقون معدل الجريمة ثابتًا باستمرار، ولا يسمحا بأية زيادة من شأنها إثارة قلق السلطات وإجبار الشرطة على التدخل. لا يجري شيء دون

معرفتهما. يجب على كل مجرم - حتى أتفه النشالين شأنا - طلب إذن للعمل منهما، ومنحهما جزءًا من الغنيمة. تشمل نفوذهما كلا من الشرطة والمجرمين، أي العدالة ونقيضها. وحدهما من يضع الحدود ما بين النور والظلام. هما من يخلق الغسق قبل النهار.

* * *

أخبرني «أحمد» من بين سعاله:

- رافق «أليكسا» الأخوين «بيجاسوس» عدة مرات

وأردف بمزيد وداعة:

- تعرف أنهما اعتادا تهريب الناس خارج المدينة أثناء الحرب، أقصد - بالطبع - من كان يملك المال الكافي. ولهذا السبب قصدهم «أليكسا»، في ظني.

لا يمكنني تخيل محادثة بين «أليكسا» والأخوين «بيجاسوس». هم لا ينتمون إلى نفس العالم.

- تبدل «أليكسا» تمامًا منذ لقائه بـ«بيركمان»، عليك إدراك ذلك. سيطر عليه اعتقاد بضرورة مقابلة الشبح ثانية والاستماع إلى رسائله. أصبح هذا الأمر بالغ الأهمية له، واعتبره واجب مقدس. لذلك افترض

استحالة وقوع شيء له حتى إتمام المهمة، هذا ما اعتقده حقيقة. حتى كاد يحملني على تصديقه أيضا... لم يكن إقناعه بغير ذلك ممكنا، مهما ناقشته في الأمر.

صحيح أن «أحمد» لم يصرح بذلك، لكني استشعرت خوفه من تحقق نبوءة الحاخام، فقد أضاف قائلا:

- فظاعة الأمر ليست في كونه ملحدًا، بل في جهره بإنكار وجود الأرواح قبل وقوع الحادثة. إن الأرواح لا تغفر للكافرين بها؛ لذا أجد نجاته من المقابلة الأولى أمرًا عجيبًا.

وأخبرني كيف تعامل «أليكسا» مع استكشافه كرحلة بحث عن كنز. وكيف أنه أبدًا ما قابل الأمور الخطيرة بما تستوجبه من حرص.

- لهذا رحب بمقابلة الأخوين «بيجاسوس» بكل سهولة، لم يهتم بطبيعة عملهما مادام بمقدورهما مساعدته في الوصول لهدفه. وقد تعهدا له - بدورهما - بتمكينه من إجراء أكثر المقابلات أهمية له - واحدة مع «بيركمان»، وأخرى مع «أنجيلا» و«ميرنا». حتى كاد يؤمن بكونهما التوأمين المذكورين في النبوءة.

- إذا، ذهب معهما؟

أومأ العجوز برأسه.

- هل معنى هذا...؟

ضرب المنضدة براحة يده، حائلًا بيني وبين إكمال عبارتي. كان رد فعلي متوقعا. فالشائعات تتهم الأخوين «بيجاسوس» بالتسبب في أكثر حوادث الاختفاء أثناء الحرب. اختفاء حقيقي. ولأنه لم يتم أبدًا العثور على أية جثة، لم يستطع أحد، أبدًا، اتهامهما بالقتل، حتى هؤلاء الذين يملكون شجاعةً كافية للقيام بذلك. حمل النادل إلى المنضدة كأس آخر من البراندي. ساعدتني جرعة الشراب على التفكير بمزيد من الواقعية. لقد انتهت الحرب منذ زمن، ولدينا الآن دولة، صحيح أنها بائسة وهشة، لكنها – على الأقل – موجودة...

– سأبلغ الشرطة بكل شيء.

وعندما طلبت من «أحمد» الإدلاء بشهادته، رمقني بشيء من التهكم.

– سأفعل، لكن كل ما يمكنني الإدلاء به هو مجرد قصص عن الأشباح.

قفزت من على الكرسي؛ جاءني النادل وساعدني في ارتداء معطفي ثم أوصلني إلى الباب.

– أرجو أن تشرفنا بزيارة أخرى. ستكون محل ترحيب. كما ستجد «أحمد» في انتظارك، على نفس الطاولة.

وابتسم النادل كاشفا عن جميع أسنانه، ذات التناسق غير الطبيعي.

استدرت ثانية. كان «أحمد» هو الزبون الوحيد في المكان، بما فيه من طاولات عشر فخمة، وصمت دافئ، وضوء خافت لطيف.[19] كان يجلس مفرود الظهر في منتصف الحانة تماما. وتحيط بالمائدة هالة من النور الوديع، تصدر عن مصباح يتدلى من السقف. كما في مسرحيات المونودراما أحادية الممثل.

***

كانت ظلمة الليل في الخارج طاغية.[20] لا أصدق أني مكثت في الحانة هذه المدة. قرأت مرة أن تسارع الوقت من علامات القيامة. ينسب المسلمون إلى رسولهم القول بأن يوم القيامة لن يحين قبل أن يتسارع

---

[19] حجرات فارغة، وبداخلها أشخاص في وحدة الأنامل. كيف لنا العثور على بعضنا البعض؟ ربما عن طريق الشم؟ لعل رائحة الهواء العفن تفوح منا لأننا نادرا ما نغادر مخابئنا؟ أم أننا نميز بعضنا عن طريق الملابس، عن طريق ياقات قمصاننا الصفراء؟ أو بأعيننا؟ أو بأصواتنا؟ تلك الأصوات التي أفسدها الصمت.

[20] يشكو الناس باستمرار من قلة الوقت. يبكون عجزهم عن إتمام أي شيء رغم امتلاكهم كل عون تقني ممكن لتيسير حياتهم – السيارات أسرع، تذاكر الطيران أرخص من السابق، الأحذية الرياضية أكثر راحة، يمكن الإعداد للصفقات بسرعة عبر الهواتف النقالة والرسائل الإلكترونية. إلا أن الجميع لا يملك أي وقت. ولا أنا. أعترف أني لا أملك سيارة، ولا هاتف محمول، ولا كمبيوتر، ولا حتى ساعة، ومع ذلك أشعر كأن الوقت يهرب مني، أشك أحيانا في استطاعتي رؤية حركة الشمس عبر السماء بعيني المجردة.

إيقاع الزمن، فيمضي العام كشهر، والشهر كأسبوع، والأسبوع كيوم، وتكون الساعة كمقدار ما يستلزم حرق سعفة نخيل من وقت.

يشير عدد النوافذ المضاءة إلى انقضاء منتصف الليلة غالبا. ترنحت في سيري على الممرات الزلقة، بين عدد لا يحصى من زجاجات البراندي، مثقل بضعف من أثر الانفعال، ومجهد... مر بي بضعة مارة، يهرعون هربا من الشارع، يقصدون مكانا دافئا وآمن. لم تكن ليلة حفية، بل بدا لي أنها تزيد الظلال والبشر تشوها.

تحاملت على نفسي حتى مبناي السكني، ثم فتحت البوابة المعدنية ودفعتها بشق الأنفس. بدا كأن تيار هواء هائل يمانعني. يقال إن كمية كبيرة من المباني السكنية قد شيدت في مجرى رياح، مما أسفر عن تغير مناخ المدينة. لا أعرف مدى صحة ذلك، لكني أعرف أن أحد جوانب المبنى في برودة القبر، حتى في أشد الأيام حرارة.

ضغط زر الإضاءة، وفوجئت بشدة عندما رأيت «مصطفى» أمام المصعد. واقفا يحدق في قائمة «قواعد السكن» المعلقة على الحائط. كان لزامًا عليَ المرور به. ظننته لم يلحظني، لكن ما أن أصبحت على بعد خطوة منه، حتى التفت فجأة، ونظر إلى عيني مباشرة، كما في جلسات التنويم المغناطيسي، أو كما ينظر ثعبان إلى فأر، وصاح:

- أخبره أنك لم تنعم بالنوم منذ أيام!

أصابني الارتباك.

- ماذا تقول؟

- ها قد تحدث «مصطفى»!

قالها بحسم وغادر المدخل.

حاولت في المنزل فك شفرة الرسالة. كانت الرسالة هذه المرة - بالتأكيد - تخصني وحدي، لكن ذلك اليقين لم يعينني على فهمها. فلن أنجح في تفسيرها والاستفادة منها إلا فيما بعد... سنناقش ذلك في حينه. أما الآن فموعدنا مع زائر مختلف، وجرس باب جديد. بدا في تلك الساعة المتأخرة كصفارة الغارات الجوية، ينذر بالشؤم ويثير الفزع.

تقف «ميرنا» في الردهة، في الإطار نفسه الذي اعتدت رؤيتها داخله. لكن المشهد كان مختلفا بعض الشيء. لم تكن مبتسمة هذه المرة، مما جعل وجهها يختلف تمامًا. كانت غاضبة، يسهل رؤية ذلك - بشرة بيضاء، وفم مشدود، وحاجبان يضغطا على العينين...

همست بصوت أجش:

- كنت أنتظرك.

- معذرة، كنت في مقابلة، أستطيع شرح...

- ربما تستطيع ذلك، لكني لا أستطيع الاستماع، لقد وعدتني وأخلفت وعدك.

لم تكن غاضبة، بل كانت تستشيط غضبا، كحقل ألغام ينفجر. التزمت الصمت. وأملت هي عليَ أحدث الأوامر بتؤدة.

- سأنتظرك غدا. مرة أخرى. في نفس المكان. ونفس الساعة.

واستدارت متجهة للدرج، رغم الطوابق الست التي تقع بين شقتي والشارع.

- حسنا، سأطلب لك المصعد.

لم ترد، ولم أسمع غير وقع كعب حذائها يتسارع. لعلها ارتأت أن مغادرتها لن تكون بنفس التأثير الدرامي إن هي انتظرت المصعد.

لم أستطع إخبارها بما علمته من «أحمد». أحتاج إلى التأكد أولا.

بينما أغلق الباب، أدركت أني لن أنام هذه الليلة أيضا. لم أتوقع أرقًا، ليس النوع المعتاد على الأقل. كان هذا الشعور جديدًا، شيء لم أجربه من قبل. سرت قوة غريبة في جسدي، كما لو أن شخصًا آخر يحاول الحلول فيه، يريد الاعتماد على عمودي الفقري، والارتواء من دورتي الدموية، شخص جديد، شخص تمتع بالنوم العميق، ومفعم بالنشاط. كما اخترق عقلي أيضا؛ أخذت الأفكار تتداخل في رأسي، لا أملك انتقاء واحدة من بينهم، والتركيز فيها. لكل صوت صدى كما في صالة التدريبات الرياضية. لكل شيء إيقاعه الخاص، وكل شيء يبحث عن شريكه. لو أنني لمست كوبا لتوجب علي تكرار ذلك، كما يجب أن تكون خطواتي عبر الحجرة دقيقة، لها نفس المساحة وتتبع النظام ذاته. لا يمكنني السير

ولو لخطوة واحدة بدون كامل تركيزي، إنه القرين يتخذ القرارات بدلا مني. إذا ما أخطأت فعل شيء، أو أفسدت الإيقاع أو قاومت تكرار حركة، يروح يعوي بداخلي، وتنشط داخل جمجمتي ريح ساخنة، مفعمة بالرمال الحادة. وتمتلئ عينيا بالدموع إذا ما استشعرت سعادته من ضحكة راضية يطلقها، بطريقته المثيرة للاشمئزاز، والخليعة.

ظننت أني سأنجح في مقاومته إن أنا استلقيت على الأرض، وحاولت عدم التحرك أو التفكير. خطر لي ذلك بصعوبة، بينما يعترضني بالأوامر لأفتح النافذة، وأقيس الحجرة بالقفز من ركن للمواجه له، وأغلق باب الثلاجة، كل هذا في وقت واحد. لكن إنفاذ الحيلة لم يكن سهلا أيضا، فقد استغل حتمية التنفس، وأصر على زيادة سرعة الإيقاع، حتى صار الأمر لهاثا محموما لا يحتمل...

ثم أشرق النهار وأنا متيبسٌ ووحيد. قد رحل عني مع أول شعاع ضوء، وتركني منهكا تماما. هكذا، بلا أي تنبيه، بالضبط كما جاء. شعرت فجأة بوحدةٍ شديدة، وبأني صرت متحكمًا مرة أخرى. كنت أرتعش، رغم أن كل ما في داخلي أو على جسدي كان يحترق. ارتديت المعطف، وأحكمت الشال حول رقبتي الرطبة، وتركت الشقة راكضا. كانت «ميرنا» بانتظاري...

***

أنا ذاهب للقاء «ميرنا»، وسأستعيد هدوء أعصابي في الطريق.

لم ينجح هذا، وكان الغثيان يعصف بمعدتي. حاولت التنفس عبر أنفي للسيطرة عليه، لكني فشلت. انتفخت معدتي وشعرت بها تضغط مكونة كتلة مقززة. ذابت تلك الكتلة ولانت في تجويف معدتي، ثم نتج عن تقلص آخر أن ذابت الكتلة بأكملها، واستحالت مزيجا من السوائل الساخنة، التي شقت طريقها إلى فمي. انتصبت رقبتي من قوة السائل، وانفرج الفكين ليعبر السيل، لكن شيء لم يخرج... لا أثر على الجليد إطلاقا، غير أني - رغم ذلك - شعرت براحة يسيرة.

وصلت إلى رجل الجليد. لم تكن «ميرنا» قد وصلت بعد؛ فقررت انتظارها. لم أعرف كم من الزمن سأنتظر، ولا كان بإمكاني تخمين الساعة حينها. لا أعرف سوى أن الوقت نهارا. بدا أنه يوم الزيارات في السجن، فقد كانت الناس تعبر البوابات حاملة أكياسا بلاستيكية - عجائز صامتة، ونسوة شاحبات مع أطفال مزعجة، وقليل من النساء الفاتنات في معاطف من الفرو...

- إذا أتيت!

سمعت صوت «ميرنا» فاستدرت. كانت تبدو رائعة، متلألئة بحق، وليست العبارة من قبيل المبالغة؛ كانت هي اللون الوحيد في ذلك اليوم الرمادي. يستحيل عليك تصور ما بين ثلاثتنا من تباين - رجل الجليد المتسخ، و«ميرنا» المتلألئة، وشخصي البائس. لا أملك مساعدة رجل الجليد، لكني سويت شعري سريعا ودعكت محيط عيني. حاولت تبرير مظهري:

- عانيت من نوم...

أوقفتني

- سنتحدث فيما بعد، عند عودتك من الشقة.

كان أحد العجائز يعبر باب السجن مغادرا. كان يضحك بصخب واستحسان. لم تعيره «ميرنا» اهتماما، فقط تحركت بلطف إلى الجانب لتسمح له بدخول المبنى. شعرت بالغيرة لمرح العجوز؛ من يدري أي خبر سعيد بلغه في الداخل؟ لا أعتقد بوجود شخص في العالم لم أكن أحسده في تلك اللحظة، أستطيع ذكر عدد كبير من الأشياء التي أفضل عملها عن مواجهة ذاك الباب ثانية، سواء حينها أو الآن. من بينها؛ زيارة لطبيب أسنان، عراك غير متكافئ، عجز جنسي مفاجئ، استلام تقرير طبي مفجع... أشياء كتلك...

- هيا تحرك، أرجوك.

قامت بدفعي. عاودت معدتي الغضب وجعلت خطواتي أكثر ترددا. كانتا العجوزتين نفسيهما جالستان أمام المدخل، أو أنها كانت - على الأقل - أغطية الرأس، والأوشحة، والبلوزات ذاتها. لم يكن هناك حوار بينهما، فلا يجمع بينهما غير الغرز التي تخيطاها. تسللت من بين أنظارهما، كاللص من بين أشعة الليزر؛ ثم طويت الدرج بمساعدة الدرابزين، وتوقفت أمام هذا الباب المقزز. بدت طبقة القذارة عليه أكثر سمكا، تبدو الآن بالضبط كأظهر بعض الزواحف. خفقت معدتي كماكينة جهنمية عندما قرعت

الباب بقبضتي. فتح الباب. وعلى الجانب الآخر كان الظلام ينتظرني. **أرض أوز مكان رائع، لكنه ليس مكاني المفضل.**

خطوت للأمام، وأذكر أن شعورا يشبه شعوري عند دخول المنجم انتابني. تطلب الأمر بضعة دقائق لتعتاد عيني الظلام. كانت الحوائط سخامية، وأخشاب الأرضية مخدوشة، وعلب أوراق اللعب والصحف تحجب الأركان. كانت قطعة الأثاث الوحيدة في الشقة - حسب ما رأيت - مجرد كرسي واحد، موضوع إلى جانب النافذة القذرة. يجلس على الكرسي رجل كبير العينين، كذلك الشخص في الحلم تماما. كان يجلس بلا حركة، يرتدي معطفًا أسود، منتصب الظهر، كمدرب يوجا. ورغم هذا الضوء الخافت، كان يمكن ملاحظة الغضب الهائل البادي من عينيه المحتقنتين وفمه النحيف. غضب يتضاعف كل لحظة. وشعرت أن إقدامه على فعل لا تتصور فظاعته لهو أمر حتمي، حال عجزه عن احتمال هذا الغضب.

قلت بسرعة شديدة:

- لم أنعم بالنوم منذ أيام.

رأيت الغضب ينحسر؛ كان المؤشر في ألعاب الفيديو ليهبط عن اللون الأحمر.

أكملت:

- ولا أرى النوم ممكنًا لي بعد الآن.

نظر إليَ بفضول، يتفحصني من رأسي لقدمي كشيء غير مألوف. انفتح فمه الصغير لوهلة؛ ثم تكلم.

- ماذا تعني؟

- لا أعرف، لكني أعجز عن النوم مهما حاولت.

- وكيف تطيق ذلك؟ أنا أقاوم النوم طوال الوقت. أقاومه، لكنه يتغلب عليَ كل سبعة أيام لنصف ساعة على الأقل.

أخبرته بهدوء:

- أظن شخصًا ما أو شيئًا ما يمنعني من النوم. وهذا الشيء موجود بداخلي.

نهض من على الكرسي وذهب إلى النافذة.

- أما الشخص الذي يمنعني أنا من النوم فيرقد في هذا المبنى. يجب أن أكون مستيقظًا عند مغادرته السجن.

فجأة، بلا أي إنذار، ولا تنبيه، قبض المشهد من أمام عيني وسحب، تغير المنظور، مال المنظر بغرابة. كأنما سقط في فيلم سريالي، فيلم مرعب من حقبة أفلام الأبيض والأسود. سيطر مخرج أفلام ما على حياتي، وأخذ يتحرك بكاميرته في الحجرة، على الحوائط... رأيته لوهلة، نحيف وأحمر العينين، ثم رأيت نفسي - مخبول، مستهلك، متعرق، مفعم بالفزع، والإجهاد، والغثيان، والصدمة. قام المخرج بعد تلك اللقطة المفاجئة بتثبيت الكاميرا في السقف. أستطيع الآن رؤية نفسي من الأعلى

واقفا أتحدث مع «نوسفيراتو» الذي يستند إلى النافذة. قد يكون هذا كله حلما. طرأ ذلك على ذهني؛ يقولون أن العقل أثناء الحلم يكون كالمدينة ليلا، بعض وظائفه معطلة، والأخرى نشطة بشكل استثنائي. هكذا كان عقلي يعمل لأشهر، ككابوس[21]. وها هو كابوس آخر في بدايته. فيه يمكن للشخص قول أي شيء على الإطلاق:

- حلمت بك. قدمت إلى بابي. لكني لم أفهم رسالتك.

لم أرى لتلك الملاحظة أثر كبير على ملامحه. واصل التحديق عبر النافذة. إلا أنه أجاب:

- لا أريد أن أحلم. لقد تذكرت الكثيرين.

- هل تذكر «أليكسا»؟

دارت رأسه ببطء ناحيتي، وسمعت صرير عظامه. ما أن توقعت رؤيتي مشهدا من فيلم «طارد الأرواح»، حتى استدار سائر جسده أيضًا. لحسن الحظ...

- لا شأن لي به. لا يوجد حساب لأصفيه معه.

---

[21] كنت في سابق الزمان قادر على الهرب من الحلم قبل أن يصبح كابوسا. ما أن أجد إرهاصات التبدل، وأستشعر خطرا يظهر عند الحدود الغائمة، حتى ألوذ بالفرار. أتذكر أن فراري من النوم يشبه كوني مغطى بالجروح. غشاء ثخين ينتظر، عند قمة الحلم، أو على سطحه، لا أعرف التعبير الأمثل. أدفعه برأسي بحيوية، فيتمدد، يغطي رأسي ثم يتحطم. أستيقظ بصداع أشد ما يؤلم عند الجزء من الرأس الذي دفعت الغشاء به. لكني أدركت عند تواجدي في الشقة، بصحبة الرجل الغريب، أن وقت الهرب قد فات منذ زمن.

كان شاحبًا، نحيفًا لدرجة فظيعة، تشد جمجمته جلد رأسه. رأيت في انعكاس عينيه نفسي، وكان حالي لا يختلف كثيرا.

- طلبوا مني زيارته وإخباره بما كان يعلمه بالفعل. وهذا كل ما فعلت.

سألته - بالطبع - عمن طلب منه ذلك.

- كلا منهما. لهما شعر أحمر. قالا إنهما سيمنحاني هذه الشقة عند قيامي ذلك. وأنا أحتاج الشقة؛ أستطيع من هنا مراقبة مجرم الحرب، «يانكي».

- أي «يانكي»؟

أشار بذقنه ناحية السجن.

- هذا الذي هناك.

- أهذا الـ«يانكي» في السجن؟

حدق في المبنى. لم يرمش. ربما لا يملك رموشا، لأني لم ألحظهم.

- نعم، لكنه سيضطر للمغادرة في وقت ما. سأنتظره مهما استغرق الأمر من وقت. لقد قتل أسرتي كلها. أمامي.

- أين الفتاة الصغيرة؟

التفت أبحث في الحجرة.

- أي فتاة صغيرة؟

نظر إليَ، وبدا لي أن عيناه ازدادتا اتساعًا، وصارتا أشد احتقانًا.

- ذات الشعر الأصفر المربوط على هيئة ذيل حصان...

ظننت أني سأغرق في عينيه، أن ظلامهما الحزين الدموي سيخنقني.

- لقد رحلت. لذا يجب ألا أنام، ولن أنام.

استمر نقاشنا لفترة أطول بكثير من أن تدون على الورق. استغرق وقته في التفكير قبل الإجابة، تخللت عباراته فترات صمت طويل، فقد كان يتوقف عن الحديث لدى مغادرة أي شخص بوابة السجن، ثم يكمل حديثه من الحرف الذي توقف عنده. وخلال إحدى الوقفات استثنائية الطول، قصدت النافذة لأرى ما استحوذ على انتباهه بتلك الدرجة.

تكرم المخرج وتبعني. لم يكن في إطار النافذة سوى مربع واحد نظيف، يناسب كوة سلاح ناري. وقفت إلى جانبه وميزت رائحة قوية، رائحة لم اختبرها من قبل يصعب علي وصفها. قامت تلك الرائحة بطرد الهواء خارج رئتي، وامتد الغثيان من معدتي لسائر جسدي. وفجأة استدار، حتى خيل إلي سماع صفير الريح؛ وجذبني من ذراعي. كانت عيناه تلمعان.

- انتبه لنفسك. التوأمين لا قلب لهما. ليسا من هذا العالم. إنهما يعلمان ما تحت الأرض.

انغرست أظافره في يدي. كنت خائفا، منه، من كلماته... رغم ذلك سألته، كنت مضطرًا...

- أخبرني أرجوك، لماذا كنت أحلم بك؟

ترك يدي ونظر إلى وجهي بجدية.

- يجب ألا تنام! لقد قضيت ستة أشهر في معسكر الاعتقال لم أنم فيها ليلة واحدة. هكذا بقيت حيا.

حذرني، واستدار جهة النافذة ثانية. زم شفتيه وحدقت عيناه في نقطة ما في الخارج. وأخيرًا تمكنت من استعادة السيطرة على بصري.

أغلقت الباب بلطف خلفي. كان الممر الخالي من النوافذ أكثر إنارة من الحجرة التي تركتها للتو.

سألتني «ميرنا»:

- من يسكنها؟

وقفت أمامها، أتنفس بعمق أُقلَب الموضوع في رأسي. كيف أخبرها بكل ما أريد؛ كيف يمكنني أن أنقل لها جزءًا مما يتوج رأسي بتاج ملتهب. تنهدت بكل ما استطعت من عمق؛ أظنها كانت محاولة مني للشرح، لكني أدركت أنها جاءت أشد إبهامًا. فتحدثت بسرعة، بصوت عالي وعصبي:

- بالداخل رجل لم ينم منذ أشهر. قُتِلت كل عائلته أثناء الحرب، وانتهى به الحال إلى معسكر الاعتقال. من وقتها يحاول العثور على الرجل الذي دمر حياته. يعتقد أن ذلك الرجل في السجن. هو لا يبدو كشبح الآن، بل كرجل. يمكنه أن يصير شبحًا بسهولة، لأن الأشباح

موجودة. أنا متأكدٍ من ذلك، كذلك آمن والدك في وجود الأشباح. أظن أن الأخوين «بيجاسوس» يعرفان مكان والدك. ظن «أليكسا» أن بإمكانهما إيصاله إليك ووالدتك، وإلى «بيركمان» أيضا. ربما لأنه علم بكونهما شياطين. شياطين حقيقية تستطيع التنبؤ بنهاية العالم.

قلت كل ذلك، وأخذت نفسًا آخر وأكملت:

- هجرتني زوجتي ولا أظنها ستعود أبدا. كان رحيلها خطأي أنا. لا أفكر إلا في ذلك. لن أكرر نفس الخطأ مرتين. لماذا لا نحاول معًا؟ لا أستطيع احتمال الوحدة. أنتِ أيضًا وحيدة، أليس كذلك؟ وإلا فما سبب قدومك إليَ؟

نَظَرَت إلى الأرض، مستندة إلى رجل الجليد. كانت مذهولة، وكيف لا تكون، لقد أدهشتني العبارات الأخيرة أيضا. أردت رفع وجهها، لأعرف ما تفكر فيه؛ وإن كان هناك رد فعل لشرحي، ولاستنتاجي ولعرضي. أظن أنها استدارتْ وغادرت في منتصف جملتي:

- ستكون علاقتنا أمرًا لطيفا، سنقرأ الكتب، ونستمع إلى الموسيقى، ونتحدث عن الرسومات.

شاهدتها تغادر، وتزداد خطواتها تسارعا، فتصير هرولة، ثم عدو صريح. كانت تركض مبتعدة كفرارها من كتيبة إعدام. كانت تلك أقوى الصدمات التي وجهت لكبريائي على مدار حياتي.

أخطأت وظننت أن الكحول سيساعدني. في الواقع، كنت أعلم أنه لن يفعل، لكني عجزت عن التفكير في أي شيء آخر.

كانت الفودكا سائغة، وطازجة، وحلوة الطعم. لا يمكن الاكتفاء منها. وكما هو متوقع، أخذ العالم يتبدل ببطء. أصبح أكثر إثارة. لم أهتم بآراء الآخرين، ولا سببوا لي إزعاجا. كان هناك الكثير منهم، حشد حقيقي، حتى أن بعض الأجسام مستتني أطرافها. كانوا يجلسون حولي، هادئين، وظاهري التمدن. يشربون، ويتحدثون. كانت الموسيقى ساحرة، كانت كذلك بالفعل، لم أكن أشكو شيئا، أذكر ذلك جيدًا، وكانت أغنية «لا أستطيع رفع عيني عنك» تداعب القلوب. أشعلت سيجارة بعد أخرى، واستمتعت بكل نفس. كان التمتع بصحبة الناس أمرًا جيدًا. بل وربما بدأت أبتسم مع الوقت. ربما ابتسمت بغباء وأعيُنٍ بليدة، لكنها كانت ابتسامة، وهذا يكفي. كانت ليلة واعدة، يمكن للعديد من الأشياءِ المدهشة أن تحدث فيها.

ثم جاءت «ميرنا». غاضبة، تشق طريقها بين الحشد مستعينة بكوعيها، وسط الصرخات والسباب. جذبتني من ذراعي، وسحبتني خارج المكان، ثم ثبتتني إلى نافذة. كانت تصرخ. عرض جديد لرواد الحانة المتواضعة. ها هم ينالون ثانية ما لم يتوقعوا الحصول عليه مقابل نقودهم. خفض النادل صوت الموسيقى ليتمكن الناس من سماع كل كلمة.

- أحتاج إلى مال، هل تفهم؟ يجب أن أسدد قرضًا في السويد. كل ما أردته منك هو استخدام نفوذك الصحفي لإخراج ذلك المجنون من شقتي، كي أتمكن من بيعها. هل تفهم؟ حسبت أن لديك معارف، حسبتك على صلة بأشخاص مهمين. اكتشفت الآن أنك لم تعد حتى صحفيا...

ينبض تحت جلد جبهتها وعنقها زوجي عروق متناهية القبح. وأنفها المتجعد يخلو من أية جاذبية.

- لقد خسرت الكثير من الوقت. كان البرلمان ليحل مشاكلي أسرع منك!

عظيم، اتضحت الأمور الآن. وبينما تستنشق الهواء استعدادًا لوابل نيران جديد، والتي كانت تأمل - على الأغلب - أن تتكفل بالقضاء علي، قلت:

- أود العودة للداخل، إن لم يكن لديك مانع. فأنا أشعر بالبرودة هنا.

بدت لي أنها تريد قول شيء آخر، لكن ذلك كان كافيا بالنسبة لي. فأنا روح أيضا. استدرت ودخلت المقهى. تفحصني الناس في قهوة «سيدميتسا» لوهلة، ثم رفع النادل صوت الموسيقى. بالطبع أذكر الأغنية (ذكرت سابقا كونها إحدى مواهبي عديمة الجدوى)، كانت «يقتلني بنعومة». كان هذا محض مصادفة. طلبت فودكا أخرى. لم يكن مزاجي سيئا. حقيقة لم يكن. ربما عند دفعك رجلًا بعنف إلى القاع، فإن هذه القوة تجعله يرتد للسطح ثانية فينال نفسًا آخر. جلست هناك باسترخاء، مستسلمًا لظلم العالم؛ أرتشف شرابي، مستمتعًا بالموسيقى، أشاهد عبر الزجاج أطياف السيارات تنزلق خلال الليل. فكرت بتفاؤل أن شيئا ما قد انتهى؛ وحان وقت إنهاء البقية أيضا.

فلنستغل تلك الوقفة، ونكمل سرد الفضائح. حان الوقت أخيرًا للإفصاح عن سبب هجر زوجتي إياي.

أستطيع القول مباشرة إن كل ما جرى كان خطأي؛ لكنها هي من بدأ الأمر. أعرف ذلك، نحن لسنا أطفالا، لا يهم من بدأ، بل ما يهم هو كيف

انتهى، لكنها الحقيقة المهملة، لم يعد هناك داعي للكذب. أتذكر ذلك، كانت تستعد لاحتفالات العام الجديد. كانت تلك أول مرة نحتفل فيها بالعام الجديد في المدينة، جرى ذلك في أحد المطاعم. أرادت شراء فستان جديد وطلبت مساعدتي في اختياره. لم أكن متحمسا، على الإطلاق. لا أفهم شيئا عن الملابس، فلا يحتوي قاموسي اللغوي على أية معاني لكلمات من نوعية «مطرز» و«منيونيت» و«مكشكش». لكنها ألقت بكومة من مجلات الأزياء بين يديّا. قالت - كما أذكر جيدا - "سأكون على أية صورة تشاء!" وحاول أن تتخيل - أرجوك - أية احتمالات غير محدودة تحملها تلك الجملة! يصعب التفكير في جملة أخرى لها نفس القوة. من يستطيع رفض عرض كهذا؟ لم أكن أبدًا رجلًا قويًا - لطالما انجذبت للرذائل بجميع أنواعها مادام الحصول عليها سهل ومأمون العواقب. وكما يقول «وودي ألان»، فإن حياتي تدور ما بين التشاؤم والتهكم والعدمية والنشوة.

كانت تدرك مقدار حبي للنظر إليها، وتفحصها أثناء مرورها في الحجرة. إذا ما استفسرت عن سبب نظرتي إليها، أدير عيني متنهدا بصوت مسموع في شبق، كمبالغة في التعبير عن الشهوة الحيوانية. كنا نلعب. لعلها أرادت المساهمة في اللعبة، لتكتشف نهايتها. لكني أثق أنها ما كانت لتتخيل ما ستئول بنا إليه. ولا كنت أنا لأتخيل... لا أظن أحدا يدرك ما في قراره نفسه، إلى أن يراه متجسدا. وهذا ما حدث.

«ڤوج» (Vogue)! يا لها من كلمة. عندما أنطق بها - مهما حاولت إجادة اللكنة - أبدو كجهاز استقبال المكالمات التليفونية. أنا وتلك الكلمة

لا ننتمي لبعضنا البعض. عند كتابتها تصبح مجرد علامة. وبالرغم من عدم إطلاعي حتى ذلك الحين على أية مجلة منهم، إلا أني كنت أقرأ في ذلك الرمز كمية لا نهائية من المعلومات؛ تتجسد أمامي كلوحة إعلانات ضخمة: حياة بدون هموم، شفافية كاملة، بواخر تشق محيط هادئ، ممرات حول المنازل تظللها النباتات المتسلقة، أناس يجلسون طول اليوم تحت أشعة شمس مستمرة على مقاعد من الخوص، نساء ساحرات، واثقات وفخورات؛ زجاجات خمر في القبو، ثياب تشبه اللوحات ثمينة... هذا هو الأمر ببساطة، لا أستطيع مخالفة طبيعتي، تغمر هذه الصور ذهني رغم قراءتي عن تسبب «ڤوج» في مقتل مئات الآلاف من النساء المصابات بفقد الشهية العصبي، والتسبب في الاكتئاب الحاد كذلك، والزيجات المدمرة، والعقم، وتشوه العمود الفقري، والصلع. إن لها بشاعة نظام ديكتاتوري أهوج.[22] ومن كومة المجلات قمت بالتقاط «ڤوج». فعلت ذلك عن قصد. وللمرة الأولى في حياتي...

---

[22] استمرت إساءات «آنا وينتور» محررة «ڤوج» لنساء العالم لعقود. لها وجه بارد يصعب معه تخمين ما يدور برأسها. يعرف الجميع أنها تكره النساء. عندما كان لها من العمر ١٤ سنة، كانت معتادة على الذهاب للجلسات التجميلية ومصفف الشعر، وكان انتقائها للصديقات - منذ الطفولة - يعتمد على نوعية وفخامة الملبس. يصفها زملائها في المكتب بأنها كاتبة بلا أي موهوبة على الإطلاق، تكاد أن تكون أمية، كما أنها وقحة تميل إلى الكذب، تأخذ من الناس ما تحتاجه ثم تلقي بهم بعيدا. ككل ديكتاتور... يشعر دعاة حماية البيئة بالأسى لترويج «ڤوج» الدائم للفراء. حتى أنهم سبق وقاموا بإلقاء حيوان راكون ميت على مائدتها الخاصة في أحد المطاعم، كنوع من الاحتجاج. لكن المرأة القاسية اكتفت بوضع منديل المائدة على الجثة وطلب كوب جديد من الإسبريسو.

توفر النسوة اللاتي يعتدن شراء «ڤوج» الدعم لها. ربما يرون أن الحفاظ على إمبراطورية قوية لا يتأتى إلا بقسوة مماثلة. فلا يمكن تعريض «ڤوج» لأي خطر، أبدا، فهي وحدها القادرة على

أعمت عيني جواهر «كارتييه» المتألقة كثعبان أمازوني. وفي الصفحة الثانية مباشرة، كانت معجزة كحل «لا أوريل» التي تعزز الحواجب والرموش لدرجة تكسب مستخدمتها المحظوظة إطلالة أميرة عربية. اكتشفت وجود شيء يدعى «كلينيك»، جل جديد مختلف كلية؛ وعرضت صفحة أخرى بروش «تيفاني»، يشبه في سحره قباب مساجد أصفهان، التي رأيت صورًا لبعضها. وقدم لي عمود «الجديد من ڤوج» الصحفي أخبارًا مذهلة عن آخر خطوط الموضة، وعلمت من صفحة «أنماط» أن الهستريا تجتاح العالم - بسبب فستان أحمر سيضفي على من تلبسه الإثارة. تشغل صفحة أخرى من نفس القسم صورة لحبيبين في نزهة، وإلى جوارهما إشارة لمدى جمالهما، وسرورهما، وتناغمهما الأكيد. قرأت نصًا عن تطور حمالة الصدر، والخمر الفائق الذي تصنعه «عائلة أنجوفا»، ومقدرة الفرنسيات الخيالية على الاحتفاظ برشاقتهن؛ رأيت ما قدمه المصور «ماريو تيستينو» لـ«ڤوج» من صور لـ«إليزابيث هيرلي»، و«كارولين ميرفي»، و«ليا كيبيد»؛ تشبثت بذهني عبارة: "هؤلاء الذين يبتاعون الكماليات لمجرد كونها كماليات، لا يفعلون ذلك لأنهم ماديون أو لأنهم جشعون، بل هم ببساطة يرسلون رسالة: أحسن معاملتي، من فضلك". كما رشحت المجلة كتابا لي، وأسطوانة مدمجة، وفيلم، وأخبرتني عامود «ما أحتاج معرفته» عن المواهب الجديدة والشائعات؛ وانتقى لي عامود «حياة على طراز ڤوج» نظارة، وأطباقا، ووسائد (من وحي المرجان). بينما أسكرتني «مجوهرات بولجاري» كخمر عتيق،

إمداد عشاقها بالأمل في أن يمنحهم خليط معين من المستحضرات والثياب تفوقا وأفضلية على غيرهم.

وعلمت بقدرة طلاء أظافر «شانيل» على جعل الشفتين مثيرتين وطبيعيتين في آن واحد، إضافة لما تضفيه عليهما من تألق جذاب، وإظهار ساعة «تاج هور» للمعدن الحقيقي لمرتديها.

قلبت الصفحات بحرص، أمعن النظر في التفاصيل، أفكر في طريقة إخراج فريق الإعداد للفكرة، أستنتج مناهج صناعة العناوين والعناوين الفرعية، أحلل أسلوب الكتابة... وبالرغم من كل ما بذلت من جهد، إلا أني فشلت في إدراك سر «ڤوج»، فشلت في إيجاد مصدر الطاقة المظلمة، ذلك الجوهر النادر الذي يميزها عن مثيلاتها من المجلات في السوق. لكني ما أن أغلقت المجلة حتى عثرت على ما أريد. كنت أريد امرأة من طراز «ڤوج» مثيرة، متألقة، لها قسوة وبرودة البلاتينيوم. كنت أريد مسخًا قوامه أعضاء «كلوي سيفاني»، و«كيت بلانشيت»، و«هيدي كلوم» و«كريستين دانست»، ويتصرف ببرودة «آنا وينتور».

وجدت تلك المرأة في قسم «ترشيحات ڤوج»، في مقالة بعنوان «عاطفة الصيف». لم تكتب المحررة اسمها في أي مكان، ومن ذا الذي يعرف الدافع السوداوي وراء ذلك! إلا أنها كانت المرأة المثالية بالنسبة لي، نفس النوع الذي أردت العثور عليه. كانت تجلس على مقعد أسود بمساند لليد. وتنبعث منها ثقة هائلة بالنفس، كانت على دراية بامتلاكها لقوة قاذفة صواريخ متعددة. تسند إحدى قدميها إلى ركبتها الفاتنة، وتمد الأخرى أمامها، في مكان ما خارج نطاق الصورة، خارج المجلة، فيما بدا لي امتدادًا أسطوريًا لعالم مثالي. تريح إحدى يديها - ذات الأصابع

الطويلة المدببة - على فخذها، وباليد الأخرى تعانق ظهر المقعد. لم تكن تنظر إلى الكاميرا؛ كانتا عيناها تتوجها بسخرية جهة كتفي الأيمن، وبدت الشفتان وكأنهما يتلفظا بحرف ألف.[23] كانت ترتدي ثوبا بسيطا، لونه وسط ما بين الأخضر والأزرق، بدون أكمام، وبياقة صغيرة حادة. وفي قدمها التي تشملها الصورة، رأيت صندلا أحمرا بثلاثة شرائط ضيقة. لم تكن هناك مجوهرات. لم تكن هناك حاجة لها.

أنهكتني جنية «ڤوج» تماما، فلم أنتبه لمجيء زوجتي ووقوفها خلفي. رفعت المجلة لها، وفتحتها على صفحة «عاطفة الصيف». ورغم احتواء الصفحة على أكثر من صورة، إلا أنها أدركت علي الفور أيهم أثار فضولي. أومأت برأسها قائلة:

- حسنًا، سنرى ما يمكن للخياطة فعله من أجلك.

مرت أيام سبعة. وعدت من العمل للبيت، واستلقيت على الأريكة فور انتهائي من تناول وجبة سريعة. كنت أقرأ كتابا يتسق مع قراري بتصفية ذهني من كل الأشياء التافهة التي اضطررت لفعلها اليوم. ولما نادتني رفعت رأسي. كانت تقف أمامي، بشعر مسدل، ترتدي ذلك الثوب

[23] "يفتتح النص العبري للعهد القديم من الكتاب المقدس بالحرف الساكن «ألف». وهو في العبرية - ببساطة - وضعية للحلق تسبق إصدار الصوت. إذا فالـ«ألف» - بطريقة ما - هو العنصر الذي يصدر عنه كل لفظ منطوق. آمنت طائفة الكابالا بكونه الجذر الروحاني لكل الحروف الأخرى، لاحتواء جوهره على الأبجدية كلها، ومعها كل عناصر التخاطب البشري. إذا فليس لسماع الـ«ألف» كوحدة أي معنى، لأنه يمثل المقطع الابتدائي لكل اللغات الممكنة..." («جيرشوم شوليم»، «الكابالا» ورمزيتها).

الفاتن والصندل الأحمر. ابتسمت لي، واتجهت لأحد المقاعد واتخذت وضعية عارضة الأزياء نفسها. وتحولت أنا إلى أحد أكلة لحوم البشر.

لم تكن تلك ممارسة للجنس؛ بل كانت افتراسا. وحقيقة، فإن تفاصيل لذتنا لا أهمية لها في مسار قصتنا، فلماذا قد تهم الأوضاع الجنسية المتعددة التي تنقلنا بينها في هذا اليوم وشطر كبير من الليلة أي شخص سوانا؟ ولن يساعد في فهم القصة فحش الكلمات التي تلفظنا بها والتفاصيل المشابهة - كيف كان تنفسنا، تبسمنا، مداعبتنا، صراخنا.[24] يكفي القول بأننا مارسنا الحب يومها أفضل من أي وقت مضى. كانت العاطفة حارة كما في أول علاقتنا، عززتها خبرة سنوات من الممارسة.

كان لهذا التحول أثر هائل علي. بدا لي أن نفقا جديدا قد ظهر في حياتي، نفق غني بالقنوات المثيرة والمجهولة. وبداخلي ولد أمل في إيجاد السبيل أخيرا لامتلاك كل نساء العالم، بدون مخاطرة أو جهد على الإطلاق. سأقوم - وبكل بساطة - بتغيير زوجتي، سأكيف الجسد الذي أملكه ليشابه الجسد الذي أريد.

عندما لاحظت خمول العاطفة، عثرت على فستان جديد، لونه أسود وتزينه زهور حمراء. وما أن أدخلت أصابعها في القفاز الحريري، حتى صارت فتنة متجسدة. لن تصدق ما أقول... تعاظمت الشهوة، لكن

---

[24] لأجلها - لا لأجلي - سأتجنب التفاصيل. أعرف كم ستكون قراءة الآخرين لأسرارنا مفجعة لها. كما أني تجاوزت بما سبق الحد المسموح بالفعل. ربما أقوم لاحقا - عند توفر الوقت الكافي - بتخلية النص من التفاصيل التي لا يستلزمها فهم القصة. فلا أملك الآن لا الوقت ولا القوة للقيام بذلك.

الملابس ما عادت ترضيني. أردت تغييرا كاملا. طلبت منها ربط شعرها على هيئة كعكة صغيرة مع استخدام أقل قدر ممكن من مساحيق التجميل. أردت منها ارتداء قميص أبيض، وتنورة سوداء تلتف حول جسدها بإحكام، وترتفع عن ركبتيها بمقدار إصبعين. كنت أشتاق لما يصاحب تلك الملابس من قسوة وتكبر. رغبت في سماع الدقات الحازمة لكعبها العالي على الباركيه، ورؤيتها ترفع أحد حاجبيها، بذهول أو ازدراء، واثقة مما تملك من قوام مثالي. أردت ملكة قاسية، مديرة فولاذية، إلهة بيروقراطية. (ستعذرني بالتأكيد إن قلتها: كنت أريد - في حالة عدم إدراكك لذلك بعد - «آنا وينتور») وأردتها كذلك دوما، لا في حجرة النوم فقط. تضرعت إليها لتجد ذلك الكائن بداخلها. مارسنا الجنس على طاولة الكتابة وطلبت منها التلفظ بكلمات نابية؛ تصف بها باستمرار ما يحدث لها. (من المهم ذكر التفاصيل هنا). وقد وافقت، لكني أتذكر الآن، أنها قالت بثبات:

- سأفعل، لو كان هذا ما تريده حقا.

عندما سئمت ذلك أيضا، أردت منها التشبه بـ«باتي سميث». انتقيت تي شيرت، وساهمت في تعديل السترة، ووجدت بروش على هيئة حصان؛ أما هي فتولت صبغ شعرها باللون الأسود، مع ترك الخصلات الأمامية متفاوتة الطول. طلبت منها الانحناء مع الإمساك بمكيف الهواء، عارية تماما. كما بدت رائعة في هيئة «هولي جيلايتلي»، بثوب أبيض وقبعة على الرأس. استمعنا في تلك الأيام لأغنية «نهر القمر» مرارا. ما عدت أطيق تلك الأغنية الآن.

وجرت الواقعة التالي ذكرها في ليلة، كان فيها مجرد التفكير مستحيلًا، بسبب احتفال أقامه مشجعي كرة القدم أسفل نافذتنا. كانوا يطلقون أبواق السيارات، ويغنون «كم من الجميل رؤيتك ثانية». كانت تجلس يومها على مقعدي المفضل إلى جوار النافذة، لا ترتدي سوى تي شيرت أزرق اللون فضفاض (كـ«بيتي بلو»). يكسو وجهها تعبير غير مألوف، نوع من غياب العقل التام، لكن مع حزن شديد. ظننت ذلك جزءًا من اللعبة، ثم سمعت تنهيدة هائلة العمق وتلك الكلمات:

- لماذا لا يمكنك أن تحبني كما أنا؟

جعلني هذا السؤال أغادر مقعدي المواجه للتلفاز. لم نجري من قبل حديثًا بتلك الدرجة من الدراما. جلست على الأرض أمامها ورأيت الدمع في عينيها.

أعتقد أني همست بتلك الكلمات أو بما يشبهها:

- لكني بالفعل أحبك، أنا أحبك حقيقة.

رفعت صوتها:

- سألتك لماذا لا تحبني أنا، أنا وفقط، وليست أحلام اليقظة تلك؟

كررت عبارتي الأخيرة.

بدأت تصيح:

- لماذا لا يمكنني أن أكون نفسي؟

- يمكنك ذلك، بالطبع يمكنك ذلك.

أدركت أخيرًا أن الألعاب قد انتهت.

صرخت:

- لكني لا أستطيع!

- بل تستطيعين، لم لا؟ يمكنك ذلك الآن. كوني ما تشائين. كوني كما تريدين.

شرعت في البكاء:

- لا أستطيع

- لم لا؟

- لأني عاجزة عن تذكر كيف كنت من قبل! أيها الأحمق.

ومن تلك العبارة كلها، لم تزعجني سوى كلمة واحدة. أحمق. سمعتها منها للمرة الأولى. نعم نعتتني بصفات كريهة من قبل، لا داعي للكذب، استخدمت مختلف الإهانات كمغفل، وجبان، ومتوحش، ومعتل، لكنها أبدا، أبدا ما استخدمت كلمة «أحمق». لم تكن كلمة «أحمق» في قاموسنا. كانت كلمة امرأة غريبة، كلمة باردة وحادة، كلمة رسمية، بيروقراطية، كلمة ميتة. كذلك كان لي بعض الملاحظات على باقي الجملة، لكن تلك الكلمة كانت الأكثر أهمية. فتلك الـ«أحمق» ولا شك، فرقتنا.

عندما عدت من العمل في اليوم التالي، لم أجدها في الشقة. ولا عادت إليها بعد ذلك أبدا.

وصرت من يومها وحيدا. عرفت ماهي الوحدة، عرفت كيف يصبح المرء - بكل سهولة - شفافًا. اعتدت إحصاء ما أملك من مزايا، للسيطرة على خوفي من أن أصير خفيا. كنوع من العلاج النفسي - ما أزال شابا، تلك الشعيرات الرمادية على صدغي تدل على الفحولة لا الشيب؛ لست مفرط الجاذبية، لكني لا أحسب شخصًا يود وصفي أن يبدأ حديثه مشيرا إلى دمامتي؛ صحبتي ممتعة، بل وقد أكون جذابًا إن اجتنبت الكحول؛ كما أني حنون. أذكر نفسي - في أحيان كثيرة - بمآثر فتنتي، حتى ما لم أكن منه أكيدا؛ أستحضر كل ما قدمته لي النساء من مديح، أتذكر وجوههن...

هكذا استمرت حياتي حتى قابلت «ميرنا». كانت هي المرأة الوحيدة التي بادرت باقتحام وحدتي. هل كان من الغريب أن أحاول؟ أكان عرضي صادما هكذا؟ كنت واثق من اهتمامها بي. وإلا فلم اختارت الطرق على بابي؟ وطلبت المساعدة مني لا من سواي؟ لست بالشخصية صاحبة النفوذ، وهذا واضح، ولا أنا معروف بالقوة، أو المثابرة، أو الحكمة. هناك عدد لا يحصى من الأشخاص الآخرين الذين يمكنهم العثور على والدها بدون ضجة تذكر وفي أقصر وقت. كما أن لغة الجسد أمرًا مهما، لقد قرأت عن ذلك في المجلة؛ لاحظت كيف مالت بجسدها نحوي، كيف نظرت إلي، كيف ابتسمت...

إياك أن تصدق المجلات، صار ذلك واضحًا؛ لكني خلصت أثناء تفكيري في الحانة إلى عدم أهمية الأمر؛ فها هي معضلة أخرى تنحل. ثم شربت نخبًا في صحة مكبر الصوت طلبا لشيء من الشجاعة، وهمست في كأسي:

- لو كانت تلك الليلة هي الحل، إذا فلتستمر إلى الأبد. ولتكن مغامرة يا صديقي، وليكن سلاحنا فيها الجلد.

ودارت شريحة ليمون دورة في السائل.

اتخذت قراري بزيارة الأخوين «بيجاسوس» والتحدث معهما بعد ثلاثة أكواب من الفودكا. وبعد كوبين آخرين، تخللتهما ثلاث أغاني، كنت أقف خارج الحانة أبحث عن سيارة أجرة.

وبالطبع، وجدت «إكرام».

تفوح من سيارة «إكرام» رائحة الأناناس. تتدلى من مرآته الأمامية أشجار من الورق المقوى، وتصدح في المذياع امرأة بأغنية تراثية. كانت السماء زاهية، والنجوم المتلألئة منثورة فيها. غادرنا المدينة، آخذين في الابتعاد عن نوافذ المنازل المضاءة. وتولى القمر القيام بدوره، فكسا لون الفضة كل شيء. وقبل مضي عشرة دقائق على خروجنا من المدينة، وصلنا إلى قرية غير مأهولة، عبارة عن حقول ضخمة يغطيها الجليد، ودروب عتيقة تقود إلى الغابة السوداء المخيفة. كانت المساحة التي تحيط بنا تخلو من البشر تمامًا؛ فيها الجليد بكر لم تطأه قدم. أرض حية هائلة المساحة وخاوية. ونحن الذين قاتلنا وبذلنا الأرواح عن طيب خاطر لكل قطعة

أرض، وواد متصحر، وغابة منيعة، وفسحة موحلة، وشجرة كمثرى ذابلة، وكومة حصى، وأخدود جاف. ثم توقفت السيارة أمام بوابة فولاذية ضخمة.

أدار «إكرام» وجهه ناحيتي.

- لا أرغب في المضي قدما. ولا أنت مضطر لذلك. يمكنني إقناعك بالعودة، أليس كذلك، يا جاري العزيز؟

هززت رأسي وغادرت العربة.

جاءني صوته من الوراء:

- كما تشاء، سأنتظرك هنا.

دفعت الباب لأخطو على أرضية ممر من الطوب الأصفر. وعلى جانبي الممر تصطف خيول مجنحة من الجص، وفي نهايته ضوء قوي يعلو قمة تل صغير. وأخيرا أبصرت ملهى «بيجاسوس»، بعد مائة من الأمتار تقريبا، وقطيعي خيل. بدا الملهى كقمع البوظة. كان يبرق بكل لون ممكن تحت دستة أضواء كاشفة. كان مرصع بالقباب، ومحلى بنوافذ دائرية عشوائية، وشرفات ومصاطب... تخفق بمواجهته على سواري عالية، أعلام دول الاتحاد الأوروبي كلها، وتصطف أسفلهم سيارات فارهة لامعة. كأنما هي بروكسل، أو مدينة أخرى حيث يسكن الأشخاص المهمين. يقف أمام الباب حارس يرتدي زي البحرية اليوغوسلافية. فتح لي الباب بأدب شديد. ثم مررت بحارسين ضخمين يقفا أمام سلة مليئة بالمسدسات، والسكاكين، والعصي، والقبضات الحديدية، والسلاسل...

أبلغاني بعدم جواز حمل السلاح إلى الداخل، وبدت عليهما خيبة الأمل عندما أخبرتهما بكوني أعزلا.

كان الجو في الداخل حارا، خانقا، رطبا، كريه الرائحة. كقلب فطيرة اللحم. يصدر من السقف صوت طبل مدوي يسمرنا إلى الأرض، وتنبعث نغمات البيانو من كل جانب، ويزعق الأكورديون، وتصيح المزامير، وتشارك كل أبواق العالم عزف تلك الجملة الموسيقية التراثية، حيث تزامنت كلمة "ليس إلا" مع خلع الراقصة الأولى لمعطف الفرو، وفكها أربطة الشعر، وإلقائها بالسروال إلى الخلف، ثم ألحقت به حمالة الصدر، وصرخت تطالبنا بقتل أنفسنا الليلة مرحا. كان مهرجانًا شعبيًا مهيبًا، مليء بفاتنات بهيئة نجمات الأفلام الإباحية. كن يرقصن أمام المرايا ويمررن أرجلهن بين أشعة الليزر لاهيات. أما حفنة الرجال المتواجدة على أرضية المسرح فما كانت تحسن الرقص؛ لا يعرفون منه إلا التلويح بالأيدي والانحناء على الأرض أمام الجميلات، وتقبيل بطونهن، واعتصار أردافهن، ولعق حليهن، والجز على الأسنان، واللهاث والعواء.

كانت النسبة الأكبر من الذكور تتزاحم حول البار وتشاهد الرقص. وعندما لاحظت أنهم لا يحدثون إلى بعضهم البعض، انضممت إليهم مسرورًا.

خاطبت نادلًا نحيفا يرتدي تي شيرت وردي:

- فودكا مزدوجة، مع الكثير من الليمون.

رمقني بنظرة خاطفة - لكن مشبعة بالسخرية - من أعلى لأسفل ثم استدار لرفوف الأكواب. ومن هناك خاطبني موليًا لي ظهره:

- نحن لا نقدم الشراب للسكارى من الضيوف.

كان رد فعل عجيب؛ خاصة مع تواجدي في وكر ليس فيه من العقلاء فردا. لكني لم ألحظ عليه أدنى تأثر عندما أخبرته بذلك.

- هذا صحيح. لكنهم جميعا سكروا هنا، أمامنا. أما أنت فمن يعلم من أي مكان جئت، وكم من المال أنفقت حتى الآن. أنت تخطط لتناول كأس واحد، والتمتع برؤية الفتيات، والتسبب في مشكلة ما، ثم إفراغ معدتك في مراحيضنا. فأقوم - مضطرا - بتنظيفها. لكني لن أسمح لك بهذا، وليذهب العالم للجحيم.

كنت فيما قبل شخصا محترما في المدينة، لم يكن ذلك منذ زمن بعيد. كان أصحاب المطاعم يفرحون لرؤيتي، ويبجلني العاملون...

سألته بجدية:

- أين رؤساءك؟

- هل لديك شكوى؟

- يجب أن أقابلهم. لقد جئت هنا من أجلهم.

- الرؤساء في غرفة كبار الشخصيات.

- أخبرهم أني صحفي.

- حقا؟ من «إكسبريس»؟

استشعرت بداخله بوادر ميل تجاهي، فكذبت:

- نعم، هذا صحيح.

- نحن من أشد المعجبين بكم. اسمع، ستغني «سيكا أليكسيتش» هنا الأسبوع القادم. يمكنك نشر ذلك بالطبع.

- سأفعل ذلك؛ ماذا عن الرؤساء؟

فكر برهة ثم قرر.

- هم أيضا يقرأون «إكسبريس»... هيا بنا إلى حجرة كبار الشخصيات.

ودخلنا من خلف البار إلى ممر ضيق. تغطي جدرانه رؤوس الحيوانات المحنطة. وتتشابك القرون عند السقف لتشكل سياج شائك.

دخلنا إلى حجرة ذكرتني بصندوق المجوهرات. كانت كاملة الاستدارة، تمتد فيها خطوط القطيفة الحمراء من الأرضية حتى السقف. ويوجد في مركز الحجرة عامود ذهبي، تحيطه أريكة من الحرير الأحمر. وعلى الرغم من عدم سماعي أية موسيقى؛ وعلى الرغم من عجز دقات طبول المرقص عن الوصول إلينا، كانت هناك فتاة عارية ترقص حول العمود. وعلى الأريكة يجلس رجلا ضخما أحمر الشعر، يرتدي بذلة رسمية داكنة مع ربطة عنق، تحيط به أربعة فتيات لا يرتدين من الملابس إلا أحذية حمراء بكعوب معدنية عالية. كان الرجل يتحدث إليهن، وكن يستمعن إليه بإنصات. وفي الخلفية رجل آخر شديد النحافة، لكن شعره أحمرا

فخم كحلوى غزل البنات، كان يجلس إلى شاشة كمبيوتر ضخمة يمارس لعبة ما، واحدة من تلك الألعاب حيث يكون اللاعب كائنا كلي القدرة يخلق العوالم ويدمرها.

قصد النادل الرجل الضخم، وهمس إليه بإيجاز ثم غادر. لم يعيرني أحد من الجلوس أي انتباه. أما الراقصة فكانت تبتسم للسقف. اقتربت من الأريكة، وسعلت ثم سألت:

- هل أنت...

لم يلتفت الضخم إلي، بل اكتفى بقول:

- خاطبني بأسلوب مناسب من فضلك، فنحن لا يعرف أحدنا الآخر.

- آسف يا سيدي، لكنك...

قاطعني ثانية، لكنه نظر إلي هذه المرة بعيون لامعة:

- معذرة يا سيدي، لكني أحتاج لإكمال فكرتي.

وعاود الالتفات للفتيات.

أذكر جيدا خطابه لهن:

- أنتن لا تفكرن، والرجال لا يعجبون بالنساء الغبية. فأنتن لا تجدن - مثلا - الاستماع للشعر. وأكثر الأشياء أهمية عندكن هي الشراب والرقص. عليكن إدراك كون الموسيقى فن؛ يجب أن تبحثن في الأغاني عن

تلك المعاني التي غابت عن البشر العاديين. نحن لسنا رجالًا عاديون، أو نساء عاديات. أليس كذلك؟ سأضرب لكن مثالا بأغنية ««ميرا» في كفنها». تحسبن أنكن تعرفنها جيدًا. لقد استمعتن إليها ملايين المرات، إلا أنكن لا تدركن حقيقة مغزاها... أليس كذلك؟ لذا سأخبركن بالمشكلة. فلنبدأ بالبيت الأول، ذلك الذي يقول، **تجري المياه من التل للتل.** الشاعر يقول أن فيضانا قد أتى وأن الوادي قد امتلأ ماءًا. ويكمل، **تحمل «ميرا» في كفنها.** يعني ذلك أن الفيضان قد تسبب في انهيار صخري أخرج «ميرا» من قبرها، حيث تم دفنها حديثا في الغالب. ثم تقول الأغنية، إذا ما أسعفتني الذاكرة: **تعالي معنا يا «ميرا»، تناولي العشاء معنا.** يعني ذلك أن الماء حمل الفتاة عبر القرية؛ حتى أن أصدقائها وربما أقاربها كذلك قد رأوها - لم يصرح لنا الشاعر بذلك - وأنهم طلبوا منها المجيء لتناول العشاء. ثم يكمل الشاعر، بأسلوب خيالي، وإلا فكيف لميت أن يتكلم! لكنها رخصة للشعراء، **تناولوا العشاء، لا تنتظروني، فالغداء ينتظرني في الفردوس مع الحور العين.** إذا، فـ«ميرا» تخبرهم باستحالة تلك الصحبة، لأنهم أحياء، أما هي فميتة، ولهذا السبب فهي تفضل تناول الطعام في الفردوس مع الحور العين. كما يتبين لنا من البيت الشعري ما كانت عليه «ميرا» من تدين طوال حياتها مما جعلها تؤمن بمكان لها في الفردوس، أو الجنة، أيًا كان اختيارك، طبقا لطبيعة اعتقادك. هل اتضحت لكن الصورة الآن؟

لم تجب الفتيات، لذا التفت إليَ.

- ألستُ مُحِقًا، يا سيدي الصحفي؟

تحركت عيناه ترمق وجهي كبندقية قناص ينتقي موضعا لهدفه.

جاء صوت الرجل الجالس إلى الكمبيوتر حادًا، كأنما صدر عن مذياع صغير:

- إنه ليس صحفيا، كان ذلك منذ زمن بعيد. هو الآن مجرد عاطل بائس.

زم العملاق شفتاه. وبدت لي أن أسنانه الضخمة تتحرك خلفهما.

- اجلس معنا قليلا.

ثم استدار للفتيات مرة أخرى. مستكملًا محاضرته.

قال العملاق:

- يجب أن تثقفن أنفسكن، وأيسر السبل وأسرعها لذلك هي مشاهدة التلفاز. لديكن تلفاز في غرفكن، وهوائي يستطيع استقبال عدد من القنوات يبلغ ٨٠٠ قناة. لكن عليكن انتقاء المحتوى المفيد بحرص.

أكمل النحيف ممارسة لعبته: أرسل مجموعة عمال إلى الغابة لقطع الأخشاب اللازمة لبناء المنازل والمزارع.

جال بخاطري مشهد ارتشاف قهوة صباحية على مقهى صغير، تحت ظل الأشجار. صباح ربيعي، وأوراق شجر خضراء ناعمة، وخشخشة الجرائد اليومية، ويدا امرأة تفتح نافذة منزل يطل على الطريق.

العملاق:

- عليكن متابعة كل البرامج الإخبارية. وفي حالة قدوم عميل ذو أهمية قصوى، شخص يتطلب اهتمامًا خاصًا، فعندها لا يلزم مشاهدة الأخبار الليلية إلى نهايتها، لكن احرصن على مشاهدة موجز أهم الأنباء. وتحديد تلك الشخصيات الهامة هي مهمتي وحدي.

الرجل النحيف: أقام عنابر للجنود وجعل من بعض الفلاحين رماة للأسهم والحراب. وزود حصتهم من اللحم والجبن.

أنا: تذكرت وجبات السمك على جزيرة «هفار»، والفوانيس الصينية البيضاء التي تضيء القوارب، والطهاة يملأون الكؤوس بالمثلجات، وصوت المياه يهدر في أذني.

العملاق:

- أنصح بكل البرامج الخاصة بالطبيعة والحيوانات. ستعرفكن تلك البرامج بالبشر أكثر مما ستعرفكن بالحيوان. فتشن عن البرامج العلمية الشهيرة في دليل التلفاز، بخاصة تلك التي تناقش الفضاء، والثقوب السوداء، والنجوم، ودرب التبانة، والنيازك - فمن يجهل كيفية جريان الأمور في السماء يجهل كيفية جريانها في الأرض أيضا. شاهدن البرامج الثقافية أيضا، عليكن معرفة المواضيع المطروحة في الساحة، لكن معرفة السبب والكيفية ليس ضروريا؛ احفظن أسماء الرسامين، وتعرَفن على أساليب الرسم الحديثة اليوم.

الرجل النحيف: أنشأ فرقتين من العساكر، وعزز جدران القلاع، وألقى الزفت على المهاجمين. صنع أكواخا للحطابين. وخصص مخازن إضافية للسلاح.

أنا: إنه وقت الأصيل. صيفا. النوافذ مفتوحة والجو هادئ والمدينة كلها تستريح. مستلقٍ أنا على الفراش مع زوجتي أعانق ثدييها. أما هي فتغلق عينيها.

العملاق:

- كما يجب متابعة المسلسلات باستمرار. ستساعد على تحريك مشاعركن. فأنتن باردات كالثلج، والزبائن لا تحب ذلك. سيمكنكن معايشة جميع درجات المشاعر في حلقة واحدة: السعادة، والشغف، والرغبة، والنشوة، وربما شيء من الغيرة، والحزن، والغضب، لكن بدرجة يسيرة... لا داع للتكلف، اللعنة على أجدادكن.

الرجل النحيف:

- لا تسب.

التفت الضخم تجاهي بسرعة لا تتناسب مع حجمه.

- ألم أكن محقا، يا سيدي؟ إن لم تكن صحفيا، فإنك بلا شك تشاهد التلفاز. لا أعرف أحد من الرجال يخلو بيته من تلفاز.

أحاط اللاعب النحيف قلعة الملك برماة الرمح وقال منوها:

- لديه تلفاز، لكنه نادرًا ما يشاهده. وليس صحفيا، لكن لديه أسئلة.

سأل العملاق أخاه، رغم استمراره في النظر نحوي:

- وماذا في ذلك؟

- أعرف الجواب، لكني أفضل لو يخبرنا هو بذلك.

- يمكنه ذلك، سيبين لنا الأمر كله. بلا شك. سيفعل ذلك فور إنهائي المقابلة مع الفتيات. سينتظر هنا.

ما أن تلفظ بتلك الكلمات حتى تحول لون عينيه للأبيض، أنا متأكد من ذلك. واستدار عائدًا لطالباته العاريات.

العملاق:

- لاحظت أن غرفكن ليست على مستوى النظافة المأمول. عليكن إصلاح ذلك فورا. فأنا أمقت القاذورات، ولن ترضون بجعل الملهى مستودعا للقمامة، أليس كذلك؟

الرجل النحيف: اقتربت نهاية العدو. قام بإرسال وحدة للهجوم. أمطرت العدو بقذائف المنجنيق والرماح، ودمر المشاة كل شيء في طريقهم.

أنا: لم أستطع التخلص من صورة أسنان قوية تطحن حبات جوز.

العملاق:

- هل ذهبت من قبل إلى مستودع قمامة؟

لاحظت فجأة أن الفتيات قد غادرن الحجرة. كان السؤال موجهًا لي.

العملاق:

- تخيل كمية القمامة التي يخلفها الرجل قبل موته. يمكننا تقدير الكمية اليومية بشكل تقريبي، كميتك أنت على سبيل المثال. أنا متأكد من استهلاكك لعشرين سيجارة على الأقل يوميا - إذا، أعقاب سجائر ورماد، علب، جرائد، كراتين ألبان، حقائب بلاستيكية، صناديق، هاتف نقال، بقايا طعام، قشور ثمار، بعض علب الصفيح...

الرجل النحيف: أوقف رماة الرمح على تل صغير، وقصف سلاح فرسان العدو، وانضم للحوار مباشرة بعد كلمة «صفيح»:

- لا يتناول الطعام المعلب أو الألبان. لا يتناول غير البسكويت، ومن مكملاته الغذائية الوحيدة هي أقراص فيتامينات ألف وباء وجيم.

(أستخدم تلك الأقراص بالفعل، على الأقل لحين اعتياد جسدي هضم الطعام المتواضع).

أنا: لم أفكر في شيء. حاولت الصمود أمام نظرات العيون البيضاء.

العملاق:

- حسنًا، لكن هناك البراز أيضا، كل أنواع الفضلات التي يخرجها الجسد من وقت لآخر، لا حاجة لسردهم... يحتاج لثياب، وأحذية، ووقود. كل ذلك يلزمه بيئة ملوثة أو مشوهة. والرجل - إضافة إلى ذلك - لا يقتصد في تعامله مع الطبيعة، بل يبذر ويترك من النفايات القابلة للاستعمال الكثير.

الرجل النحيف:

- بالتأكيد، يخلف ضِيفنا الكثير من القمامة بالفعل. جاء يستعلم عن «أليكساندر رانكوفيتش»، أجرى زيارة لمدرسة الموسيقى...

(نظر إليَ مبتهجا، كان مسرورا لكوني ماثل أمامه. كُنتُ كدميةٍ انتظرَها طويلة. واحتوت نظرته على شيء وحشي).

أنا: سرى في مخيلتي منظر لشجرة تين عجوز، رغم جهلي الصورة الحقيقية لشجرة التين. وأمام الشجرة كومة من الأحجار بها العديد من الثقوب المظلمة التي تخرج منها رؤوس وأذيال أفاعي حمراء.

الرجل العملاق:

- لا تترك الحيوانات أية نفايات، عدا كمية بسيطة من الفضلات. إنهم يحسنون معاملة الطبيعة، كضيف مثالي. حتى أنهم يخفون أجسادهم جيدا. هل رأى شخص مقبرة حيوانات أبدا، مقبرة حمام، أو غزلان أو قطط؟

الرجل النحيف:

- هجرته زوجته، وهو يعاني منذ ذلك أشد المعاناة. مكث يمارس العادة السرية لتسعة أشهر وثلاثة أيام على الفراش. خلال تلك الفترة جاوزت زوجته كل الحدود. كم تبلغ من العمر؟ خمس وثلاثون على ما أظن. شيء مثير، أظنها الآن أكثر جمالا من أي وقت مضى، ازدادا ثدييها امتلاءًا، وكسا اللحم العظام القبيحة عند أردافها.

أنا: استحالت الحجرة جهازا هضميا، كانت الجدران تنبض بالحياة.

الرجل العملاق:

- تحيط المدافن بمدننا. لا يبلغ عمر أكثر مدافن فرنسا قِدمًا قرنين من الزمان. أما قبل ذلك، فكان يتم استخراج عظام الفقراء عند امتلاء المقابر لوضع الجثث الجديدة مكانها، وأما تلك العظام فتسد بها الفراغات بين جدران القلاع. كانوا يعتقدون أن العظام الآدمية خامات عزل جيدة.

الرجل النحيف:

- أخبره أنك عاجز عن النوم. (بصوت حاد).

عندها أدركت عجزي عن مواصلة الطريق. أو بعبارة أدق، أدركت عجزي عن الاستمرار في السقوط. كان يتوجب علي الامتنان للصورة الواضحة التي قدمها لي ذلك الفأر أحمر الشعر. كان يتوجب علي أن أكون ممتنًا لما كشفه لي من عجزي عن التحكم بأي شيء. لا حولي، ولا داخلي. لا أستطيع تغيير أي شيء، مهما فعلت. لم يعد هناك معنى

لكلمات كالخوف، والنحيب، والهرب، والاختباء. لم يعد لدي ما أحميه، أو أخشاه، لا سبب لتجنب الناس والانزواء بعيدًا عنهم. ومن الواضح أن قريني قد توصل للنتيجة نفسها، فقد استقام جسده، واستطال، وزأر ينفث غضبه المدوي. وبالضبط كحمامات جاري، اتخذ كلانا وضعية القتال، اعتمدنا على الأرجل الخلفية، وشددنا كل عظامنا، وعضلاتنا، وأعصابنا. فرقعت المفاصل، وطقطقت العروق، وتدفق الدم. كان كل ما حولنا أحمر اللون، يتوهج، مضاء بالنيون. وبغير خطة أو هدف، قفزنا في الحمرة معا، لا نبطن غير رغبة في تدمير كل ما يقابلنا، ولا يملأ نفوسنا سواها. وأحسب أني نجحت مرات قليلة في توجيه اللكمات... حتى اصطدمت بشيء صلب، سد منيع. تكومت على الأرض من أثر ألم فظيع، وغمرت الحمرة دماغي، فاضت ملايين الأطنان من السوائل القرمزية من ينابيعها الساخنة، وانفجر مليار بركان... وعندما تسربت آخر قطرة حمراء إلى الخارج، صار كل شيء أسود.

كل الأشياء سوداء في حقيقتها؛ يتبدل ذلك فقط إذا ما تعرضت للضوء. لذا بدأ «ليوناردو» جميع لوحاته بطبقة من اللون الأسود. كنت غارقا في اللون الأسود. وانخلعت من السواد قطعة، ارتعشت، تمايلت، ثم تحولت إلى الرجل محتقن العينين. انحنى فوقي وقال:

- أنت نائم، ألم تقل لي أنك عاجز عن النوم؟

طلبت منه:

- ساعدني كي أنهض.

- لا أستطيع، يجب أن أغادر. لن أبقى هنا دقيقة أخرى.

قالها وغاب في دوامة من الظلام انطمست خلفه.

تملكني السواد ثانية. لا أدري كم من الزمن مضى إلى أن طرقت إحدى الأغاني الهادئة سمعي وصوت العملاق يردد معها.

من ذا الذي سرق سواد اللون من الليل

وأودعه في عينيك سرًا لامعا، يا «رومانا»؟

من ذا الذي أجبر الطير على تسليم أنغامه، والصمت

ثم التحليق ذاهلا في سمائك، يا «رومانا»؟

ماذا تكون نيران البراكين، أمام ما يتأجج

إذا ما أصاب القلب رقصاتك، يا «رومانا»؟

وكل العيون تتوق لرسمك وكل الأيادي

تود أنها يوم تمس مرآتك، يا «رومانا»

آه لو أمس يدك، يا «رومانا».

فليلية كنت أغنيتك، أغنية ستنسى

ستنسى في الغد، يا «رومانا».

أفضل أن أجود عن طيب خاطر

بنفسي، ولا يكون فقدانك، يا «رومانا».

- تلك الأغاني لم تعد تنشد الآن، مضى زمن الفن الأصيل. فيها كل شيء كما يجب أن يكون، فيها وصف صادق لحب حقيقي لم يقابل بحب مماثل. أليس كذلك، أيها الصحفي، أو أيًا ما تكون؟

سمعت الصوت الحاد يوضح:

- لا يعمل صحفيًا، لكن الناس تظنها لم تزل وظيفته.

قررت مغادرة الظلام؛ ثبت أسناني، وأعدت رأسي لموضعها، ثم حاولت اختراق الغشاوة، حاولت الوقوف. ازدادت الغشاوة إحكاما، عصرت برأسي، وتشبعت عينيا بالألم... لم أنجح. سمعت صفيرًا كريها.

- كيان الإنسان هو مخاوفه. كلما ازدادت مخاوفك، ازدادت إنسانيتك. وإن لم أكن مخطئًا، فأنت لديك من المخاوف سبع. أما أنا - ولا أقصد التفاخر - فليس لدي من المخاوف شيء. وتلك عبارة تخبرك عني بالكثير.

كان لزامًا عليَ التخلص من الأصوات. استجمعت كل قواي، وأغلقت عيني، وجززت على أسناني، وجعلت من كل جزء من جسدي زنبركا. ونجحت. انفضت الغشاوة منفجرة. وابيض كل شيء حولي.

كان نفس الصوت الحاد ينتظرني:

- أتريد بعضا من أقراص الـ«كافيتين»؟ وحدها تلك الأقراص يمكنها مساعدتك، أليس كذلك؟

* * *

استيقظت في بياض ناصع. دائما ما كنت أتخيل غرفة الراهبة كذلك نظيفة، وفراش ضيق، وخزانة صغيرة بيضاء إلى جوار الفراش، وحوض لغسل اليدين، ومنضدة ضيقة وكرسيان أبيضا اللون. أما الآن وبينما أفكر فيها، أرجح أنها - ولا شك - إحدى الغرف التي تستقبل فيها الفتيات الزبائن. كنت أسند رأسي إلى حجر إحداهن. كانت شديدة الجاذبية، غير أن تصفيفة شعرها لم تعجبني. كانت تضع منشفة باردة على رأسي، بينما يتدلى نهديها العاريين، بحلمتيهما الكبيرتين، فوق رأسي. يجلس الأخوين «بيجاسوس» على الكراسي الصغيرة. أيديهما متشابكة وأحد حاجبيهما مرفوع علامة على الاهتمام، كلجنة اختبار. ابتسم النحيف ابتسامة طفيفة وقال:

- هذا «أهلوبين»؛ وأنا «علاء الدين»، أكبره بثمان دقائق.[25] نحن إخوة، لكل منا اللقب ذاته «بيجاسوس». كذلك الحصان المجنح. يعني اسمي «رفعة الإيمان»، أما اسمه فلا معنى له. وأنت يعني اسمك «الابتسام»، لكنه لا يناسبك، لأنك أبدا ما ابتسمت بصدق منذ عشر سنوات على الأقل. يمكنك بالطبع إيجاد مغزى في ذلك، لكن هذا ليس موضوعنا.

أشار «علاء الدين» بيده فغادرت الفتاة، وأردافها تهتز بوضوح.

لقد نجوت بعد صدام مع «أهلوبين». وتلك تجربة يعافها من هم أكثر منك قوة. لكن لا داع للقلق، كل ما بك هو مجرد صداع، كان من الممكن أن يكون الأمر أكثر سوءًا. نحن تحت تصرفك وسنجيب عن كل أسئلتك. ما الذي يثير فضولك؟

لم أكن لأتصور الأمر بهذه السهولة أبدا. لم أحلم أن يوليني الأخوين «بيجاسوس» اهتمامهما، وأن يرغبا في إجراء حديثٍ معي، أو حتى السماح لي بطرح أسئلة. وبالرغم من اندهاشي التام، قلت غير مكترث، «أليكسا»، وشعرت بحروف الكلمة تنغرس في عقلي. أبدًا ما تعرضت لصداع كهذا، رغم كوني ضمن مرضى الصداع النصفي المخضرمين.

---

[25] يمكن للأرض أن تستمر في الحياة بعد انطفاء الشمس لمدة ثمانية دقائق فقط. قرأت قصة عن شاب درس بحرص ما سيفعله بكل جزء من اللحظة من تلك الدقائق الثمانية. وكان من ضمن استعداداته، أن خلق قائمة من ثمانية أماني يتوجب عليه تحقيقها، بأي ثمن، قبل انطفاء الشمس.

«أليكسا». هذا هو سؤالك الأول إذا. حسنا. نحن نعرفه. «أليكساندر رانكوفيتش» رجل جيد. أحبَت أُمنَا برامجه. كانت تستمع له دومًا. أتذكر قولها مرة، إن «أليكسا» هو الشخص الوحيد في المدينة الذي يتحدث إليها. لم أفهم ذلك حينها، أما الآن فقد صار ذلك واضحا لي. لا أرغب في مواصلة الحديث عن ذلك. يكفيني إخبارك بأننا قمنا - من أجل ذكرى والدتنا - بمساعدته أثناء الحرب.

واصلت التحقيق:

- إذًا، أين «أليكسا»؟ تدل آخر آثاره على عزمه اللقاء بكما...

اتسعت عينا «أهلوبين». وأجاب «علاء الدين» بهدوء:

- قرأت ذلك في مذكراته، أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- أعرف ذلك، أعرف كل شيء، يجب أن تعتاد هذا... أنساني الزمن «أليكسا». أتدري أني أدركت الآن فقط مرور سنوات على آخر لقاء بيننا. فترات الحرب ليست مسلية، تقع العديد من الحوادث ومن الصعب تركيز الانتباه على أمر واحد فقط.

- ومعنى ذلك...؟

أحسب أني هكذا سألت، بشجاعة.

لم يهتما بقولي المتهور.

- كان يريد الذهاب إلى المنجم المكشوف.

قطع «علاء الدين» جملته فجأة. نظر الأخوين لبعضهما باقتضاب. وتكلم «أهلوبين»:

- استرح قليلا، سنرسلك إلى البيت. سيقوم جارك العزيز «إكرام» بتوصيلك.

لم أرغب في الذهاب. كنت أريد إجابات. لا أعرف أي إجابات كنت أتوقع، لكني ظننت أن كل شيء سيتحسن لو سألت، لو عرفت وفهمت.

- لماذا أرسلت بنزيل معسكر الاعتقال المسكين لباب «أليكسا»؟

عاودا النظر إلى بعضهما البعض. أومأ «علاء الدين» برأسه فأجاب «أهلوبين»:

- لم تكن هناك أماكن مبيت كافية أثناء الحرب، رغم الزيادة الهائلة في نسبة الوفيات. ربما كان ذلك بسبب حرائق البيوت، فلا أظن لازدياد النسل دخل في هذا.

أكمل «علاء الدين»:

- احتاج الرجل لمسكن يأويه، وكان «أليكسا» يتعجل المغادرة. أخبرتك أننا نحن الإلهام.

تبادلا الابتسامة. واستكملت أنا أسئلتي. لست شجاعا، ولا أحاول إخفاء هذا. لكن تمر على المرء أوقات في حياته ينسلخ فيها من طبيعته.

- هل عذبتما «أليكسا» في مدرسة الموسيقى؟

- لديك من الأسئلة الكثير، لكن لا داعي للعصبية، سنخبرك بكل شيء. لا شك أن مدرسة الموسيقى موضوع شيق.

يتحدث «علاء الدين» الآن بجدية شديدة، وذهبت عنه ابتسامته المزعجة.

- هناك التقينا ب«أليكسا». حاول الدخول لكن الحراس منعوه. كان يصرخ برغبته في معرفة ما يجري، برغبته في التأكد بنفسه. خرجت وأخبرته أن أهون تغيير لن يصيب حياته، ولا سيقدر على تغيير حياة الآخرين، مهما عرف أو رأى.

أضاف «أهلوبين»:

- سأل إن كنا نقتل الناس في الداخل.

أكمل «علاء الدين»:

- أخبرناه أن أحدًا منا لم يقتل شخصًا واحدا. بالضبط كما أخبرناك أيضا.

أضاف «أهلوبين» ثانية:

- مع فارق اكتفاءه بجوابنا.

- هذا غير صحيح؛ أنتما مفتونان بالموت. اللعنة على الموت. كأنه شيء مميز. تموت الناس يوميًا بكل سهولة. سهولة لا تصدق، وذلك وحده هو المثير في الأمر. يختفي الناس سريعا ومعهم كل ما كان ملكًا لهم فقط، كل ما حسبوه مميزًا، مختلفًا، أشياء جعلتهم يقدرون ذواتهم، أشياء كانوا يخجلون منها. يختفي الناس ويأخذوا كل شيء معهم. جزء هائل من العالم. لكن سرعان ما يعاود العالم تنظيم نفسه ويعود كل شيء كما كان.

كان لدي المزيد من الأسئلة، آلاف الأسئلة...

- لماذا فعلتما ذلك؟ لا يمكنني الاستيعاب، لماذا عذبتما الناس؟ ماذا كنتما تريدان منهم؟

- ألا يمكنك التخيل؟ ألا تدري بالفعل؟

لا أدري أي منهما سائلني، ربما الاثنان، إلا أني أذكر الجواب، أذكره جيدا.

- مدرسة الموسيقى هي هديتنا للمدينة. بعد كل ما جرى هناك، لم تعد المدينة بريئة ولن ترجع أبدا. متى يتجمع عدد من الناس في مكان واحد ويبدأون حديثا عن جمال المدينة، وتمدنها، ورقتها، وطيبة أهلها، سيتذكر شخص ما مدرسة الموسيقى.

قلت:

- هذا شيء أحمق. ومثير للشفقة. لا أصدق أن كل ما فعلتماه كان من أجل هذا.

تبادلا النظرات.

- حسنا، ربما لم يكن هذا فقط. هناك النقود أيضا؛ والذهب، والنساء الفاتنة والخيل السريعة.

ضحكا. ضحكات رهيبة بالطبع. وفجأة، قفز «علاء الدين» من على كرسيه وصار أمام وجهي بالضبط. كولونيا، وقليل من العرق، وكريم شعر، وغضب. صاح:

- ماذا تظن، أتظن نفسك بريئًا؟ كنت تدري بأمر مدرسة الموسيقى، بالتأكيد سمعت بما كان يجري. وإن لم تسمع فأنت مذنب كذلك، مذنب لعدم اهتمامك بالآخرين، لم تكن تفكر إلا في نفسك. أنت مذنب أيضا!

كان غضبه يتصاعد. ألقى بيديه جانبا كأنما يريد إزاحة الجدران.

- الكل مذنب، لا أحد بريء. الكل يبحث عن أسهل الطرق لينال مراده. لا يهتمون أبدًا بأن هؤلاء الذين يحققون رغباتهم يعملون كالعبيد، تقتلهم أوبئة مجهولة، تأكل أجسادهم الكيماويات، يخنقهم الهواء الملوث. الكل يدفع ليتولى آخرون القتل نيابة عنه، والتعذيب، وإهانة البشر. لا أحد بريء، لا أحد. اللعنة على أمهاتكم جميعا! من سمع منكم ومن لم يسمع!

بعدها - وفجأة - هدأت أعصابه.

- أتعرف، ربما كان من الجيد لو سألت «أحمد» عن مكان «أليكسا». هو من طلب منَا المساعدة.

رأى الذهول على وجهي. وأثار ذلك سعادته.

- حسنًا.. حسنًا.. إذا كنت تجهل ذلك. ألم أخبرك أن الكل مذنب؟ والآن استجمع قواك. هيا، فـ«إكرام» ينتظرك، رفيق السلاح في مدرسة الموسيقى.

ابتهج لما كسا وجهي تعبير أبشع.

- ولا كنت تعرف ذلك؟ أي صحفي أنت؟ يا لك من صحفي فاشل. اذهب الآن، حتى لا يضطر للانتظار. إنه بشر أيضا، حتى ولو كان سائق أجرة.

يجلس «إكرام» في السيارة صامتًا. وأقبض أنا على رأسي بيدي، أحاول التفكير.

وأخيرًا، قال:

- أخبرتك أنه لا داعي لذلك.

- وهل كان هناك داعي لمدرسة الموسيقى؟

كنت أنظر إليه، إلى عينه مباشرة. لم يكن ذلك سهلا، فقد كانت عيناه تقبعان في الداخل، متأهبتين للاختباء. لكني نجحت، أمسكت به وثبّته بقوة. وغادرت الابتسامة وجهه.

- اخرج من السيارة!

خرجت.

لم أكن قد تمكنت من السير إلا خطوة وحيدة عندما فتح الباب ثانية. قال من بين أسنانه وهو بالكاد يسيطر على غضبه:

- أكسب عيشي من إيصال الناس إلى أي مكان يشاءون، من هذا العالم إلى الآخر، ما دام ممكنا وما داموا يدفعون. لا أختار زبائني، ولا أهتم بسبب ذهاب شخص ما لمكان ما. هل هذا واضح؟ إن كان كذلك فلتصعد إلى السيارة وتخبرني بوجهتك.

ركبت السيارة. كان من الغباء ألا أفعل. كنت في منتصف الغابة، في منتصف الليل. كان الجو باردًا وكنت قد استنفدت خزين بضعة عقود من العناد.

فتحت باب الشقة والإجهاد يسحقني. كنت متأهبا للأسوأ. فعندما يقابل المرء الأخوين «بيجاسوس» لا يبقى في الحياة ما قد يفاجئه إلا قليل. حتى أنه لم يكن ليفاجئني إفضاء باب الشقة إلى أكثر عوالم الوحوش الأسطورية فظاعة - إلى حلقوم الوحش «أهيرون» ذو الرؤوس الثلاثة بما فيه من صرير أسنان، وحرارة حارقة غير محتملة، وبرودة قارصة، وكلاب، ودببة، وسباع، وأفاعي.[26] لكن الباب أفضى إلى شقة

---

[26] كتب «بورخيس» عن الوحش «أهيرون» في «كتاب المخلوقات الخيالية». أوضح فيه أن «أهيرون» هو الجحيم متجسدا – حيوان تسكنه الحيوانات. وجاء شرحه هكذا:

"هذا الشيء أكبر من الجبال حجما. تبرق عيناه، ويتسع فمه احتواء آلاف الأشخاص الواقفين داخله. يتولى اثنين من الأرواح الهائمة مهمة إبقاء فمه مفتوحا، كما في أطلانطس؛ يقف واحد منهما على قدميه والآخر على رأسه".

العزوبية. بهوائها العفن. استدرت إلى الضوء في الممر و... لا شيء. خطوت على الباركيه فتأوه. كالعادة. جلست على الكرسي المجاور للنافذة وأصغيت السمع، رغم جهلي بما أريد سماعه. كان الشعور لذيذا. ظننت أن قريني الهائج قد تركني أخيرا. أني صرت وحيدًا تمامًا. وحيد في جلدي، مستريح في هيكلي العظمي. نويت النوم شهرا، لكن بطريقة صحية، كعامل كادح. لكن سأقوم أولًا بقليل من الأعمال الهامة. أولها زيارة «أحمد»، ثم الاتصال بالشرطة. للإبلاغ عن الأخوين «بيجاسوس» ووضع حد لانتقامهما الأحمق. لم أرغب حتى في تصور نوعية العمل الشرير الذي قد يكفي لإرضائهم.

وجدت شرخًا مديدًا في جدار حجرة النوم. بدا كدوالي ساق مصففة شعر عجوز. ساءلت نفسي أي شيء تسبب في ظهوره. لعل زلزالا ضرب المدينة، بينما كنت نائما. كان شرخًا سيئًا؛ إلا أن شريطا لاصقا جيدا سيتكفل به.

* * *

كان الهاتف يرن بجنون.

وكتب «إمانول سفيدنبوري»:

"لم يتسنى لي رصد هيئة الجحيم، لكن قيل لي إن للجحيم هيئة شيطان، كما للسماء هيئة إنسان".

- هل أنت بخير؟

لم أتوقع تلك المكالمة، على الرغم من كم المفاجئات التي حملتها لي الأيام الأخيرة. توقفت عن التنفس، وجف فمي، وأخذت العديد من الردود تنهال على عقلي في نفس الوقت، بلا أي ترجيح مني لإحداهما على الأخرى. كان هذا صوت زوجتي السابقة. مفعم بالحب والقلق! كما كان من قبل. أظنه كفيل بمفرده أن يشعرني بنشوة جماع.

همست بحماسة، ألهث كجرو في نهار مشمس:

- نعم، أنا بخير.

- اتصل بي أحد أصدقائك. قال إنك في ورطة كبيرة وتحتاج للمساعدة.

- أي صديق؟

- سألته هذا السؤال أيضا. لكنه ضحك قائلا: **من مدرسة الموسيقى**. كانت ضحكته بشعة. كالمجنون... من هذا الرجل؟

ما عاد هناك شيء ممتع. هاتفها الأخوين «بيجاسوس». يعرفان أني لا أهتم إلا بشخص واحد فقط في العالم. زوجتي (أعرف ذلك، السابقة...).

- لا تخافي يا «رومانا». سيصبح كل شيء على ما يرام.

ظلت صامتة.

- سيصبح كل شيء على ما يرام هذه المرة.

- سنرى...

قالت ذلك بخفوت شديد، وأغلقت الهاتف.

عدت إلى الكرسي. وشعرت كأن قلبا إضافيا يخفق بين ضلوعي.

لم أكن لأسمح بحدوث شيء لها. فكل ما كان حسنًا يومًا ما يمكث داخلها. لا أستطيع تخيل وجهها إلى جوار الأخوين «بيجاسوس». كما لو أنهم يعيشونَ في عوالم متوازية، من مواد متباينة، يستحيل على أي شيء أن يجمعهما. يجب أن تظل الكائنات النورانية في انفصال عن كائنات الظلام، وإلا فسيختل توازن العالم ويفسد من الأشياء كل ما كان ذو قيمة.

اضطررت للاستسلام، نسيان أمر الشرطة، والعدالة، والانتقام. لا أستطيع إقحامها في تلك القصة القذرة. كنت مذعورًا لمجرد إجرائها مكالمة هاتفية معهم. لا أستطيع السماح بدخول الأخوين الرهيبين إلى حياتها. لا أستطيع التسبب في ذلك. مهما كان الدافع.

استمتعت باستحضار جملة «رومانا» القصيرة قبل الخلود إلى النوم: "هل أنت بخير؟" فكرت فيما تحويه من الأشياء الرائعة. يتضح من تلك الكلمات الثلاث أنها ما تزال تهتم لأمري، وإلا فما سبب قلقها؟ هي لم تهمس بهم، بل تكلمت بصوت واضح، إذا أين كان رجلها الجديد أثناء حديثها معي؟ ربما لم تتصل من البيت وربما لم يكن في الشقة؟ اخترت

الاحتمال الثالث لأنعم بالأحلام السعيدة، أكثر الاحتمالات عذوبة - كان هناك، لكنها أجرت المكالمة دون اعتبار له، لم تهتم بما قد يظن. فقد أدركت كوني أكثر ما في حياتها أهمية. شيء مذهل.

* * *

أيقظني صوت «مصطفى». سمعت الرسالة الصباحية بوضوح كاف "أجود عن طيب خاطر بنفسي، ولا يكون فقدانك". شعرت بكامل جلد جسدي يتوتر. وخطر على بالي فورًا احتمال وقوع مكروه لـ«رومانا». رغم تنوع التفسيرات الممكنة للرسالة، إلا أني انتقيت أسوأها. يتوجب علي القيام بكل ما أستطيع لحمايتها. تملْكني هلع رهيب في البداية، كدت أن أخرج من جلدي كصابونة من الكف. هرعت خارج المبنى السكني وأخذت أركض في الشوارع. ثم أدركت جهلي مكان إقامتها. وبعد أن أدركت ذلك، واصلت الركض لخمس عشرة دقيقة، لا أعرف السبب، لعله أملا في لقائها صدفة بطريقة ما. وأخيرا توقفت، مبللٌ بالكامل وبدون أي ذرة أكسجين في رئتي. وقفت هناك أحاول التفكير بينما الجليد يصل إلى ركبتي. تذكرت أني لم أرها منذ جاءت لجمع متعلقاتها. لعلها غادرت المدينة؛ بالتأكيد فعلت، لم ترق لها تلك المدينة قط. ثم أعدت استرجاع محادثتنا الأخيرة حتى نهايتها. كان صوتها منخفضا، ربما لم أحسن الاستماع؛ ربما قالت "سأراك" بدلًا من "سنرى".

هكذا أنا. يمكنني تأويل كل شيء حسب رغبتي، حتى وكل شيء يشير بوضوح إلى خطئي. تلك موهبة جديرة بما أطلقوه عليها من لقب: «العمى الهستيري».

* * *

وجدت «أحمد» في مكتبه. لم يكن سعيدًا حينما رآني. كان يجلس واجمًا إلى مكتبه. لا رقعة شطرنج أمامه، ولا شيء غير الحائط الفارغ من خلفه. لا شك أنه لاحظني أنظر للفراغ حيث كان يقف الحصان الأعمى.

- إن كان مجيئك للحديث عن الأشباح، فلتعلم أن تلك حماقات لا تهمني.

جلست، مستندا بمرفقي إلى المنضدة، ناظرًا إلى عينيه مباشرة (أشاح بوجهه بعيدا) وقلت:

- جئت للحديث عن «أليكسا»...

- قلت أني لا أرغب في الحديث عن الأشباح!

قام من مجلسه وتناول معطفه ثم غادر. كنت أعلم أنه يريد مني إتباعه.

أحضر لنا النادل الشراب من نفسه. ذلك البراندي اللذيذ. كانت رائحة البحر المتوسط تفوح منه. تناولت كامل الكوب في جرعة واحدة. وأعترف أنها معاملة لا تليق به.

لم يمس «أحمد» كوبه. كان يمضمض فمه برشفة ماء. وعندما تجرعها أخيرا قال:

- يمكنني إخبارك ببشاعة الحقد الذي كنت أبطنه لـ«أليكسا»، إن كنت حقا ترغب في ذلك.

أعربت عن موافقتي بسؤالي النادل كوبا آخر من البراندي. أقوم الآن باسترجاع اعترافه - ككل شيء حتى الآن - من الذاكرة. وأظن أني تذكرته جيدا؛ تحدث «أحمد» بهدوء، بدون وقفات، ولا تلعثم ولا تكرار، كما لو كان خطابا أعده منذ زمن طويل. وهاك ما قال:

- نعم كنت أحقد عليه. حقدت عليه بسبب «أنجيلا» و«ميرنا». للدرجة التي أحبتاه بها. كانت معدتي تموج حقدًا بينما أجلس في بيتهم، يحاولون إيهامي بكوني فرد من العائلة. لهذا توقفت عن زيارتهم. صارت أغلب لقاءاتنا في مكتبي؛ ففي المكتبة لا يظهر الفارق الضخم بين سعادته وتعاستي. كان الحقد يشعرني بالنقص؛ وفرحت لرؤية سعادته تذبل بالتدريج. ولما غادرتا، صار نحيبه المتواصل يزعجني، أزعجتني شكواه من مدى وحدته، ومدى شوقه لزوجته وابنته، وارتيابه من تسلل الجنون إلى عقله. كيف كان بتلك الصورة من العمى؟ كيف كان بتلك الدرجة من القسوة؟ كان يعرف أني مكثت العمر وحيدا، يعرف أني لا

أملك حبيبا لأفتقده... ورغم ذلك، استمر، كل يوم... يأتي إلى مكتبي كل نهار لعين ويتباكى. كان ذلك أشد علي من الحرب.

تحدث بهدوء يشبه الهمس. وظننت به المرض لعسر تنفسه، واحمرار أذنيه.

- ازداد كل شيء سوءًا عندما أخبرني بلقائه «بيركمان»... بتلك السهولة... بدون أي مجهود على الإطلاق، بدون بحْث، ولا بذل للذات. بل إن الشبح - في الواقع - قصده. عاد حقدي ثانية، أسوء من ذي قبل؛ حتى أصبحت عاجزًا عن النظر في عينيه. لقد كرست حياتي للبحث عن الأرواح، ولم أرى أيا منها. تخليت من أجل ذلك عن كل شيء، ولم أهتم أبدا بشيء آخر. أجهل الأدب المعاصر، والأفلام، والرياضات، والمسرح، والرسم، إلا ما كان ذو صلة بشغفي. لا أشاهد التلفاز. لا أعرف ما بين الأحزاب السياسية من فروق. أقضي معظم الأوقات وحيدا. من كان ليحتمل رجلا كهذا؟ لكن ذلك لم يزعجني، طالما كنت أعرف أن الفرصة ما تزال متاحة. لكن هناك وقت يأتي على الإنسان يحاول فيه عد السنين فيدرك أن ما نسى من السنوات يفوق ما قد تبقى له.

وواصل حديثه قائلا:

- حينها فقط علمت أني سأمكث ما تبقى لي من سنوات العمر التعيس وحيدًا. وأسوأ ما في الأمر إدراكي بأني قضيت ما فات من السنوات هباء. فقدت كل شيء بحثا عن شيء لم أره أبدا، شيء لا أملك سببا للإيمان به. أما «أليكسا»... حصل هذا الشخص على كل شيء بلا

أدنى جهد. لذا أجريت الاتصال بالأخوين «بيجاسوس»، طلبت منهما اصطحابه لأي مكان آخر، ليكن الجحيم إن أرادا، ما دام هذا المكان بعيدًا عني.

نهضت من على الكرسي؛ فجاءني النادل وساعدني في ارتداء معطفي ثم أوصلني إلى الباب. أخرجت محفظتي، لكن النادل أشاح بيده.

- لا داعي لذلك، أنت ضيفي. إنها آخر ليلة لنا، فسنغلق الحانة إلى الأبد.

أحنى النادل رأسه وابتعد متراقصا.

ذهب إلى طاولة «أحمد» وأطفأ النور. لتبتلع الظلمة الرجل العجوز.

* * *

حقيقة، لم أعد أدري إن كان ليلا، أم نهارا، أم صباحا. كان الشرخ في جدار حجرة النوم واضحا للعيان. ازداد حجمه، حتى صار إمرار قلم رصاص خلاله ممكنا. جربت... وضعت يدي عليه وشعرت بحركة هواء خفيفة. كان ذلك مستحيلا، فهو ليس بجدار خارجي.

أغلقت الباب، وجلست علي المقعد وقررت ألا أفكر في ذلك أو في أي شيء آخر. سأجلس فقط، كما في تلك النكتة. نجحت بتفوق في الاحتفاظ ببقعة ضخمة سوداء في رأسي. ظلام دامس.

استمر ذلك حتى سمعت شخصا ما يطرق خشب الباب برفق، ربما استخدم ظافر سبابته. كنت في حالة تمكنني حتى من سماع احتكاك أرجل النمل داخل أنفاقهم الضيقة أسفل الباركيه.

تقف «ميرنا» أمام المدخل. يكسو وجهها تعبير غير مألوف؛ مزيج من الحزن وطيبة القلب. كنت - بالتأكد - عاجزا عن الوصف، فمن الواضح أن القصة تحتوي على المزيد والمزيد من التناقضات. لم أسمح لها بالدخول إلى الشقة. كانت الجدران تزأر. ليس من اللائق تعريض الضيوف لكرب كهذا. أغلقت الباب خلفي. ووقفنا أعلى الدرج، في سكون المبنى السكني. تناولت بيدي. فنظرت حولي كأنما فوجئت بتواجدي هنا.

- سأعود. لقد نلت كفايتي. لا يمكنني البقاء هنا أكثر من ذلك. لا أرغب في معرفة جديد الأخبار، لا أريد الشقة، لا أريد شيئا من تلك الظلمة. أريد الذهاب.

لم تعد تحتاج لسماع أنبائي الجديدة.

- تعال معي. سيعجبك المكان. سنشاهد الأفلام، ونتشارك ألعاب الفيديو، يمكننا الذهاب إلى الحفلات... والتسكع، وقضاء أوقات ممتعة... ثم لنرى ما سيحدث. فأي ما يحدث، أيا كان، سيكون أفضل من هذا.

كان يمكنها رؤية ارتباكي..

- أنا أحتاجك...

كان من اللطيف سماع عرض كذلك، لكني قلت:

- لا أستطيع؛ لدي حياة كما تعرفين. لا يمكنني ترك كل شيء بتلك البساطة.

كان رد فعل هزلي وأعتذر عنه.

توقفت عن التنفس.

- كما تشاء. يتوجب علي المغادرة. لا أدري السبب، لكن الخوف لازمني منذ جئت إلى هنا. خوف من كل شيء. عادت إلي كل أنواع المخاوف ثانية.

- كم عددهم؟

- أهذا مهم؟

كلانا - أنا وأنت - يعلم ما لتلك التفصيلة من أهمية فائقة.

قالت إنها آسفة لصراخها في، وإنها كانت منفعلة، تحت ضغط رهيب، وذكرت المزيد من الأعذار المشابهة. قمت بطمأنتها، أخبرتها أني لست غاضبا، وأن ذلك قد يحدث لأي شخص... ماذا كنت لأقول؟ نعم، أنها خيبت ظني، وأني وضعت عليها من الآمال الكثير، حتى أنه كان بإمكانها إنقاذ حياتي. إلا أن كل شيء قد تبدل، في تلك الفترة الوجيزة، ما بين صراخها في

والآن. كما أن لي كرامة، وإن كنت أجيد إخفائها. تصورت أننا انتهينا من شرح الأمور بطريقة أنيقة، وأنه يسعنا على الأقل أن نحظى بوداع لطيف. لم يكن هناك سبب للنقاش. لكنها، أرادت الحديث...

أخبرتني كم صار الوضع فظيعا بعد وفاة أمها وكيف صارت وحيدة تماما. ثم استندت إلى الدرابزين. ساد الصمت. سألتها كيف عثرت على مفكرة «أليكسا» كمحاولة مني لتخفيف التوتر، ولا أعرف سببا لاعتقادي المستمر مسئوليتي عن القيام بهذا الدور. قالت إن المفكرة كانت بانتظارها في المكتبة في جزيرة «بورنهولم»، على الرف المخصص للمواطنين الجدد القادمين من البوسنة والهرسك. كانت تطل من بين كتاب «البوسنة: تاريخ موجز» لـ«نويل مالكوم»، وسيرة حياة «توما درابكوفيتش» التي دونها «جيفكو م. بويانيتش». تساءلت إن كان باستطاعتي تخيل صدمتها حينئذ؟ بالطبع يمكنني ذلك. لا يوجد شيء أعجز عن تخيله.

وقفنا في صمت لفترة. كان ذلك محرجا، لكني لم أستطع التفكير في طريقة لبدء النقاش ثانية. لم يكن هناك شيء ليقال.

قبلتني ساعة الوداع. أبقت شفتاها على خدي لبضع ثواني. تملكني الفزع خلالها. ثم رحلت. وصدقا، كنت أعلم حينئذ أني أراها للمرة الأخيرة، كما أعلم ذلك الآن.[27]

---

[27] ينتابني الأسف لشعوري بذلك. كان من الأفضل لو عاملت «ميرنا» كاحتياطي الذهب الخاص بي. فشيء ما يخبرني بأن اعتياد الحياة في السويد ممكن. يوجد هناك الكثير من الأشخاص الوحيدين. لكنهم لا يقتلون أنفسهم لذلك. بل يرتادون النوادي الاجتماعية، ويتناولون

مكثت في الوحدة زمنا طويلا، وفجأة، وفي اليوم نفسه أو الليلة - أيا ما كان - التي غادرت فيه «ميرنا»، جاءني زائر آخر. زائر غير مرغوب فيه على الإطلاق.

سمعت باب الشقة يفتح، فافترضت عدم إغلاقي له، رغم ظني القيام بذلك و... كانا في الداخل. ببذل سوداء ورؤوس ملتهبة. إنهما الأخوين «بيجاسوس». ومن وراءهما آثار واضحة لأحذية موحلة. لم يعيراني أي انتباه. جلس «أهلوبين» على الكرسي، وفتح التلفاز، رفع الصوت واستغرق فورا في متابعة برنامج عن الجنس في فلسفة «التانترا». سمعت صوت ذكر يقول في التلفاز: "أهم شيء على الإطلاق هو عدم حدوث القذف". كان «علاء الدين» يفحص الكتب على الرف. ثم استدار، ونظر إلي، ثم إلى أخيه، وسعل. حينها، قام «أهلوبين» على الفور بخفض الصوت.

- يبدو أنك تنتظر شخصًا ما؟

كنت أستشيط غضبا؛ أهتز فوق المقعد.

- لماذا تفعلان هذا؟ لماذا العبث بأعصاب الناس؟

أنشد «علاء الدين» بينما يرمقه «أهلوبين» بشغف:

- البعض يحكم جسدك وحياتك بالجود؛ أما أنا فأرسي بخوفك دعائم سلطاني.

الشراب على القوارب، ويقيمون الحفلات المتميزة. صحيح أن الكحول هناك باهظ الثمن، إلا أني أعتقد حقيقة بوجود خطأ ما في البلاد ذات الكحول الرخيص.

- ماذا تريد مني؟ أتركاني وشأني!

أجاب بهدوء شديد:

- نحن محبان للإنسانية. وليس ثمة طريقة لإدراك وجود الآخرين أفضل من التعرف عليهم بشكل كامل. ولن يتسنى ذلك بغير التسلل لحياتهم اليومية. بخفاء... وشيء كهذا، أقولها ثانية، لا يمكن بدون السيطرة على حياتهم.

تفحصني ثانية كجماد مثير للاهتمام، مغطى بالتراب.

- لا أدري لماذا يقلقك ذلك. أنك لست وحدك أبدا. ووحدها الأديان تقدم سلوى كهذه.

أضاف «أهلوبين»:

- بالطبع، يجب التنويه إلى ما لكل هذا من جانب مادي. فالاقتصاد الحديث يهدف للسيطرة الكاملة على السوق. ونحن - في نهاية الأمر - رجال أعمال. قبل كل شيء...

أومأ «علاء الدين» برأسه مصدقا.

- ولحرية التصرف مكانة هامة في التجارة.

كانت الكلمات الأخيرة موجهة لي. لم يكن هذا استنتاجًا صعبًا، فقد اقترب «علاء الدين» من وجهي، حتى كادت أنفانا أن تتلامسا.

اندس «أهلوبين» بيننا وأحاطنا بيديه الضخمتين.

- ألن تقدم لنا القهوة؟

لم أكن واثقا من وجود أية قهوة في البيت، لكني استدرت متوجها للرف.

- ألن تسأل عن الكيفية التي نريدها عليها؟

سألت.

- سوداء كمنتصف ليلة بلا قمر.

قال ذلك «أهلوبين» ثم ضحك كلاهما كدمى أطفال مزقزقة.

وضح لي «أهلوبين» عندما لاحظ أني لم أشاركهم الحماسة:

- الجملة من التلفاز، المحقق «كوبر»، هل تذكره؟

قال «علاء الدين»:

- دعك من هذا، لا يهم، من الواضح أننا لسنا محل ترحيب هنا. هيا لنذهب، سيارة الأجرة في انتظارنا.

قال أخوه:

- أهو «إكرام» الطيب؟

صدق «علاء الدين» على قوله، بينما يرمقني بخبث.

- من سواه؟ زميلنا في الحرب، رفيق السلاح في مدرسة الموسيقى.

ألقت عرائس المسرح برأسها للخلف تضحك بصوت مكتوم.

لم أعد أحتمل المزيد، كنت مضطرا للتوسل إليهما...

- أرجوكما، لن أبوح بشيء لأي شخص، فقط لا تؤذوها.

سأل «علاء الدين»:

- من؟

همست:

- «رومانا».

سأل «علاء الدين» ثانية:

- أي «رومانا»؟

قال «أهلوبين»:

- هذه المرأة في تلك الأغنية.

تذكر «علاء الدين»:

- آآه، تلك المرأة.

وصمت الاثنان لدقيقة وأومأ كل منهما برأسه للآخر، كما لو أنهما يستحضرا الكلمات واللحن.

سألت بأكثر ما وجدت بداخلي من النبرات تأدبا وذلة:

- هل تعرفا مكانها؟

عندما ضحكا، تناثر لعابهما على الجدران.

- تعال معنا.

* * *

أثناء المرحلة الإعدادية، قمت بزيارة معسكر الاعتقال في «ياسينوفتس» في رحلة مدرسية. عرضوا لنا فيلمًا وثائقيًا بعد اصطدامنا طوال اليوم بسقف الحافلة وكراسيها. حدقنا في الشاشة؛ وسط صمت رهيب، ولم يجرؤ أحد حتى على الهمس. ظهرت على الشاشة مشاهد متتالية لجثث مذبوحة، وتل من أسنان، وكومة شعر، وسكاكين لجز الأعناق، ومطارق، وحفر مملوءة بالجثث. كنا نبلغ من العمر العاشرة تقريبا، وربما أقل. كان جسدي يرتعش عند خروجي من المسرح. ثم وقفنا جميعا في حقل، يغمره ضوء الشمس؛ له لون أخضر خيالي، كـ«تيليتوبيلاند». خطوت بحرص، أخشى أن تنشق الأرض تحت قدمي

وأسقط في حفرة مظلمة تملأها الأجساد، العارية، الرمادية، المتشابكة، التي تقاسي سكرات الموت، وتمزق حلوقا بأظافرها.

انتابني الشعور ذاته عند وقوفي أمام المنجم المكشوف، والذي حولته سلطات المدينة لمستودع قمامة بعد الحرب.[28] كان الجليد يغطي كل شيء، وبدا مستودع القمامة كحقل أبيض، مليء بالتلال. كانت الأرض تتحرك تحت أقدامنا. كنت لأشك في الأمر لو كنا هناك في «ياسينوفتس»، أما الآن فأنا واثق أن الأرض ولا شك تتحرك بلطف، أن شيئًا ما حيًا يقبع أسفلنا... يغلي تحت عفن الجليد الأبيض، يغذي الحشرات، والهوام، والدود، وأشياء صغيرة مقززة... نفايات المدينة كلها. كل ما يعتقد الناس أنهم ما عادوا يحتاجون إليه، ما يزعج حياتهم. ما يخنقهم. ما لا يستطيعون مواصلة استخدامه. كل ما لا يقدرون على أخذه معهم. كل ما يسبب لهم الذكريات السيئة. شيء كان جميلا وما عاد كذلك، لذا ما عادت منه فائدة. أشياء ما تزال صالحة للاستخدام، لكنها قديمة الطراز. تخمرت تلك الأشياء بمرور الوقت، ففقدت هيئتها، ولونها، وغايتها الأصلية.[29] ذابت جميعها وتوحدت بالأرض.[30] حيث يقف ثلاثتنا، أنا والأخوين «بيجاسوس».

---

[28] عبَّر «دانيلو كيش» عن ذلك ببراعة:

"مستودع القمامة كما المدافن، يشبه مخازن العالم الكبيرة، التي تحوي جوهر هذا العالم. وضع الأشياء إلى جوار بعضها يخلط الغرائبي مع العجائبي".

[29] وكل ما تصنعه الوحدة بالواقع.

[30] "لا تعرف الطبيعة الإبادة؛ فقط تعرف التحويل. وكل ما تعلمته من العلم وأتعلمه، يعزز إيماني بالوجود الروحاني بعد الوفاة".

قال لي «علاء الدين»، بينما يبتسم معتذرا ويهز كتفيه النحيلين:

- كنت تبحث عن «أليكسا»، إنه هنا في مكان ما.

- أنتما قتلتماه.

ضحكا، ثم رد «علاء الدين» بنبرة حاسمة وصوت مبتهج:

- لا تكن غبيا. لم يقتل أحد منا أي شخص خلال الحرب. لم يكن هناك داع لذلك. كان يحيط بنا العديد ممن أرادوا تجربة ذلك أخيرا. ظنوا - غالبا - أن معايشة الحرب دونما قطف للأرواح، أمر غير منطقي. لم نضطر لإجهاد أنفسنا، لم نقتل أحدا. فمجرد تواجدنا كان يشجع الناس على ذلك. لم يتعين علينا إلقاء محاضرات تشجيعية. كان خيال الناس ثريا بصورة لا يمكن تخيلها. سرقوا الإعانات الإنسانية، ثم وضعوا الأسمنت في الدقيق واللبن البودرة وباعوهما في الأسواق. ألم نخبرك من قبل؟ ما نحن إلا الإلهام.

نظرا كلا منهما لأخيه برضا، كانت الكلمة تروق لهما.

- إذا من فعل؟

توصل «فيرنر فون براون» - العالم النازي ومخترع صاروخ «ف-٢» - إلى هذا الاستنتاج في نهاية حياته. كان قد وقع في أسر الجنود الأمريكيين بعد سقوط برلين، وتم نقله إلى أمريكا. وهناك عمل في ناسا خلال فترة رئاسة نيكسون. ضمن فريق العلماء الذي أوصل أول بشر إلي القمر.

واستخدم «توماس بينشون» تلك العبارة شعارا لكتابه «قوس قزح الجاذبية».

- سوء الفهم، هذا هو الفاعل. أتذكر أني طلبت من الناس اصطحاب «أليكسا» للمنجم، لكنهم أساءوا الفهم، اللعنة، تلك هي الحرب، هكذا جرى الأمر.

ثم استوعبت. يا للهول... بعض من صغار القتلة المطيعين ظنوا أن زعيميهما أصدرا أمرًا باصطحاب «أليكسا» إلى المنجم وتصفيته هناك.

سألني الأخوين «بيجاسوس» باهتمام، ناظرين إلى أحذيتهم. التي يرقد أسفلها، في مكان ما من الظلمة،«أليكساندر رانكوفيتش»، مهمل ومنسي، ممتزجا بالقمامة:

- هل أعجبك الشرح؟ هل صار الفهم أكثر سهولة الآن؟

هاجم الغثيان معدتي وصعد إلى رأسي. تقيأت دفعات قوية سببت ثقوب برتقالية في الجليد. ثم جلست على الأرض، بين القيء، أمام أقدام الأخوين الكريهين. كانت رؤوسهما الحمراء تلتهب في الظلمة فوق تل النفايات.

* * *

أطفأت الظلمة عيني. جاءتني على هيئة ستائر شريطية، والتي أخذت تزداد سمكا. ثم ساد الهدوء العالم. أو بعبارة أدق، غمرني نوع من الضوضاء الخافتة، كتلك التي تصدر عن مسجل الشرائط. ظننتني

جالس وحيد على صخرة صغيرة تطفو عبر الفضاء. غير أن ذلك لم يكن بشعا، ظننتني بلغت بذلك النهاية، حيث المكان الذي لا أضطر فيه لتبرير أفعالي لأي شخص بعد الآن، حيث لا يتوقع أحد مني أي شيء بعد الآن.[31]

لم يستمر الهدوء إلا وقتًا يسيرًا. ثم استحال في لحظة كربًا عصيبًا، لعله أعظم الكروب على الإطلاق: الانتحار. لا توجد طريقة لتخفيفه، لن يلطفه شيء... كل ما تبقى كان الإدراك الجزم بأن كل ما في هذا العالم، كل شيء، لا معنى له مطلقًا.

كان يمكن للظلمة من حولي أن تكون أي شيء. كان يمكن أن تكون فتحة، نفقا أو ثقب تعبر خلاله الكائنات العتيقة إلى هذا العالم.

اهتزت الأرض من وقع حوافر الخيل. تمايلت الظلمة. وسمعت صهيلا، وهسيس رياح عبر مناخر مشدودة. كانت الخيل تقترب، بسرعة شديدة. لاشك أنه قطيع كبير من خمسين حيوان ضخم أو يزيد. وارتعشت كل مفاصل جسدي خوفا. لكني لم أحاول الهرب، وإنما ثبت رأسي بين كتفي وانتظرت أن تدهسني الخيل. عندئذ، وفجأة، انقطع صوت الحوافر، وكأنما يد عملاقة أطاحت بالخيل من على ظهر الكوكب.

---

[31] في أكثر لحظات حياتي بؤسا، يجول بخاطري أن إعاقة كانت لتجعل الأمور أفضل، إعاقة بغير تشوه بالغ، كفقد إحدى الساقين مثلا... لا ينتظر أحد من المعاقين شيئا. لا أحد ينتظر منهم عونا، ولا رعاية لشخص أو شيء. لهم حرية مطلقة ويمكنهم التفرغ لأنفسهم، دونما اتهام من أحد بالأنانية.
لا أفكر هكذا طوال الوقت، بل في الأوقات بالغة التعاسة فقط..

بزغ في الظلمة ضوء، أنار لي - قبل كل شيء - راحتا يديًا. وفي الجانب الآخر من مستودع القمامة، رأيت دائرة ضوء مكتملة، ككشاف ملهى ليلي. كنت أرى المشهد نفسه الذي رآه «أليكسا»، أعايش التجربة ذاتها، والتي يتوجب علي أن أصفها الآن بالطريقة نفسها. كان «بيركمان» يقترب، شبح حفرة التعدين، الجني، العفريت... كائن من أعماق الأرض، لا يظهر إلا لشخص بلغ من روحه القاع. إنه الشبح الذي ينقذ وينذر.

يقف في قلب الضوء رجل نحيف، طويل، يرتدي معطفًا أخضرًا مديدا، ولمعطفه ذلك ياقة ضخمة دائرية وأزرار سوداء بحجم قبضة عامل منجم. كان شعره خشن وقصير، وأبيض بالكامل ومشع كضوء النيون. وجهه شاحب، وأنفه نحيل، وتخلو عيناه من أي بياض. بالضبط كما وصفه «أليكسا»، ما عدا أن لهذا شارب كث. انحنى لي؛ وانقسم جسده عند مستوى صدره إلى جزأين. إلى هنا كانت الاستعانة بعبارات «أليكسا» الدقيقة ممكنا، لكن استمرار المقارنة الآن أصبح عبثيا. كان الشبح معروف لي، معرفة جيدة. حدقت فيه، بعصبية، أخشى كون اللقاء الذي أجريه، سرابا متوهما. ابتسم لي ورفع يده اليمنى. عندها فهمت. كان هو الشيء الوحيد جلي الوضوح أمامي... قال «بيركمان» بصوت مقدم برامج الإذاعة، المألوف، الذي تحبه المدينة كلها: "جلوك أوف". ترددت التحية بين قباب النفايات. سمعها بلا شك كل كائن حي. نظر نحوي بفضول، أمال رأسه وانتظر. حان دوري كي أتحدث، لكني أجهل ما يتوجب علي قوله. لا أستطيع التفكير في أي شيء. اكتفيت بالنظر إليه أحاول حفظ المشهد في ذاكرتي. وددت لو يُحفر في ذهني، فلا أنسى تفصيلة واحدة: الحركات، الرائحة، طريقة سريان الرياح، سلوك الظلمة... كنت مشلولا -

ولا شك - بالكامل. هربت كل الألوان من وجهي، وانفتحت عيناي على اتساعهما، فتلك هي الحالة التي نقابل عليها الأرواح. تفحصني، بشيء من الهدوء، متأهب لكل ما يحتمل صدوره عني من قول أو فعل. شعرت به يشفق علي بصدق، يتفهمني كمحيط نقي من الطيبة. ذلك أنه كان لي الحليف الوحيد في الحياة. والسند الأوحد في الظلمة.

لم تكن الظلمة من حولنا هي الغياب المعتاد لمصدر الضوء، بل كان عالمًا متميزًا، غني وممتلئ بشكل لا يوصف... وعلى الرغم من ذلك، شعرت أن جسدي لا ينتمي لهذا المكان، وأن حواسي لا تعمل هنا. أما «أليكسا» فكان مندمج بالكامل مع تفاصيل الظلمة، ويقف بثبات على اللاشيء. ساعدني حضوره على الهدوء؛ فالتويت بجسدي ببطء، واستشعرت إيقاع الأنفاس، وصنعت لنفسي مكانًا في هذا العالم... إلى أن بدأت أشعر بالراحة. أدركت بطريقة ما أن مكروهًا لن يصيبني هناك. كرهت إفساد اللحظة، رغم أن لدي مما أرغب في البوح به الكثير؛ لكني أردت التمتع بالطمأنينة ثانية، ولو حتى لفترة وجيزة.

لا أدري كم من الوقت انقضى، لكن سرعان ما أومأ لي برأسه وابتسم، أو هكذا شعرت. لم يقل شيئا؛ إلا أني كنت أثق بنيته إخباري عن لقاءنا القادم. في مكان ما، حيث يتسنى لنا ثانية، أن نتعرف على بعضنا البعض في سلام. عندما أفكر في ذلك الآن، أظن أن اليأس كان حري به أن يتملكني عند إدراكي لرحيله، لكن ذلك لم يكن... كنت أوقن أني سأراه ثانية، بالضبط كما أعرف ذلك الآن.

تشبع ضوءه باللون الأحمر، ثم شحب فاختفى. افترقنا. واستحوذت علي الظلمة ثانية: ظلام عادي، أرضي.

لا أدري متى غادر الأخوين «بيجاسوس» مقبرة النفايات، أم إذا كانا قد شاهدا «أليكسا». لم يكن هناك وجود لأي إنسان غيري في المقبرة. وساعتها فقط، أدركت في وحدتي أني أرتجف بردًا. ساعتها فقط شعرت بالرياح الباردة تجوب المكان.

لم أجد مكانًا لأقصده غير الشقة، هناك حيث بدأ كل شيء؛ إلى قلب الوحدة، ورياض الخوف. سألت نفسي هل اختفت الشقة من الوجود أخيرا، أم أن الظلام لم يبتلعها بعد. لكن على أية حال، كان أمامي طريق طويل لأقطعه. سيزداد كل شيء سهولة عندما أقف على أرض صلبة، هكذا كنت أتمنى.

من ذا الذي سرق سواد اللون من الليل

وأودعه في عينيك سرًا لامعا، يا رومانا؟

لا أملك أدنى فكرة عن كيفية رجوعي للبيت. جررت نفسي حتى مقعدي، وجلست، شاعرا ببرودة غريبة. كانت تصدر عن غرفة النوم. فتحت الباب بصعوبة، فقد كان يقاومني. هزتني موجة خوف شديدة لما رأيت الشرخ قد توحش، حتى التهم من الجدار ثلثه. كان مظلما منيعا

تصدر عنه ريح لا تهب إلا في مساحة خيالية الاتساع. أغلقت الباب بسرعة ودفعت الخزانة أسده بها.

كنت أخشى أن يطيح الشرخ بالحاجز الحقير، وأن يحطم الباب ويتحرر. ضخم وجائع. ربما هو الانفجار الكبير ينبت في شقتي، وأي شيء يملك الإنسان فعله أمام مشكلة كهذه؟ إبلاغ السلطات؟ تحذير قوات الدفاع المدني من خطر ابتلاع اللاشيء للمدينة؟ أو ربما يتوجب علي الاتصال بالجني الحافظ: «أوسوسور»؟[32]

سأسأل «أليكسا» عندما أراه ثانية إن كانت ثمة طريقة أستطيع مساعدته بها. أيهمه بالفعل أن تصاحب دفنه طقوس شعائرية معينة؟ لعل ذلك أمر مبالغ فيه عند الأحياء؟ لعل بقايا الموتى لا تعني أي شيء للراحلين، ولا الأرواح؟ بل لعل قطعة الأرض المسورة وتلك الزهور والدكة لا تعنيهم بشيء؟ أي سبب قد يدفعنا للاهتمام بهيئة الحفرة التي نرقد فيها، لو كانت هناك حياة بعد الموت؟ أللزهور من فوقنا أية أهمية، بينما الديدان تتغذى على قلوبنا؟

---

[32] الجني الأخضر «أوسوسر» هو الجني الحارس للأبكم، والمكتئب، والمجنون. وتذكر أسطورة كرواتية قديمة عشق هذا الجني لفتاة جميلة. ولما تزوجت تلك الفتاة بإنسي، ألقى عليها الجني لعنة، فما كان من الفتاة المسكينة إلا أن أغرقت نفسها في النهر. فندم الجني أشد الندم، وألقى بنفسه في النهر خلفها. وعاقب نفسه بربط قدمه بقاع النهر. وفي كل خريف، عندما يفيض النهر من المطر، يسبح الجني من القاع إلى السطح، مطلقا نداءات ثلاثة: أوسور، أوسور، أوسور! ويلقى كل من يسمع ندائه هذا، حتفه في الخريف نفسه. كما يعتقد البعض تواجد «أوسوسَر» في قاع أحد أنهار منطقة «البوسافيا».

هل تنشد الأرواح أي مساعدة من البشر؟ لم أسمع من قبل عن شخص قدم مساعدة لشبح، غالبا ما يكون التأثير واقع من الأرواح على البشر... لعل كونك شبحا أفضل من كونك بشرا. فللشبحية مزايا... تتحدث وقتما تريد الحديث، وبالطريقة التي تود الحديث بها. يعاملك هؤلاء الذين قررت الظهور أمامهم باهتمام حقيقي، فلا مجال للعبث هنا. أنت ميت، لم تعد في ذلك العالم، إلا أن صلة ما تزال بينك وبينه، فأنت ما غادرته تماما أبدا.

وعلى صعيد الآخر، فإن كونك شبحا يبقيك نشطا، ويجردك من تلك الراحة التي تستحقها. لقد حرمت فوائد الحياة الآخرة التي ذكرها الكتاب المقدس.

* * *

إليك أول الأخبار السارة.

انشقت السماء أخيرا وسمحت للشمس بالظهور. لم أتمكن من مشاهدة حدوث ذلك، فأخيرا نمت الليلة الماضية. بعد عدد من أيام يقظة لا أحصيها. أسفل طاولة الطعام. استغرقت في النوم سريعا، ولم أحلم بشيء. ولو أن أيا من الأحلام راودني، فقد كان لي من الحظ كفاية لأنساه. أما عن ذلك الصباح: عندما فتحت عيني وجدت أن الشمس قد دخلت إلى

الحجرة بالفعل، وامتصت منها الكآبة. ذاب الثلج سريعا، حتى أن ملاحظة هبوطه بالعين المجردة كان ممكنا. كانت جداول الماء تجري في الشوارع، هادرة مغرغرة، لتتقابل عند السوق وتكون دوامات وشلالات صغيرة تطفو عليها ما نتج عن المدينة من قذارة في الأيام الأخيرة.

ثم رأيتها...

المخاوف! وعرفت شيئا عنها علك لم تعرفه بعد: تبدو المخاوف - إذا ما انفصلت عن البشر - كأكاليل الزهور المنسوجة من الأشواك، والأنياب، والمسامير المتسخة. كان الماء يحملها. يطن كالبعوض منها ما كان صغيرًا، ويتأجج الكثيف كالحمم البركانية أو نهر من القطران. سريعة كما الكلاب المدربة إذا ما انقضت على الحنجرة، منها ما تنغرس أنيابها في مؤخرة العنق، وما تفرغ انقضاضاتها المباغتة المعدة من الهواء، وما تتجمد لبرودتها العظام في الجسد... كثيرة بصورة تفوق الخيال، يستحيل تصورها أو حتى التنبؤ بها. العديد والعديد من الأهوال...[33] شاهدتها طافية على السيل الهائل، تتمايل بغضب، لكن خضوعها لتيار الماء مستمر ما يزال... كان ليسعدني حينئذ سماع بعض الموسيقى الجميلة، كي تكتمل بها لذتي.

حط كف على كتفي. ذكرتني ضآلته ونحوله بيد رأيتها على غلاف أحد الألبومات الموسيقية. فاستدرت لأجد «علاء الدين» بمواجهتي. بدا مختلفا عن المعتاد. يستخدم كريم تثبيت للشعر، ويرتدي بذلة رمادية لامعة

---

[33] إن الخوف من المستقبل هو أسوء المخاوف قاطبة، حتى أنه يفوق الخوف من الموت. وإنه ليدفع أهل مدينتنا – لفرط تمكنه منهم – إلى تفضيل تكرار اليوم ذاته إلى الأبد.

وحذاءا مقوس الرأس. كان هذا هو الزي الرسمي لرجال الأعمال المحليين في المعارض التجارية أو المواكب الدينية. كان جادا، ورسميا أيضا؛ عابس الوجه يشد ياقة الجاكيت بين الحين والآخر ويسعل. فوجئت بسلوكه الغريب. وقفنا في مواجهة بعضنا البعض، ينظر كلا منا إلى الآخر في عينيه، وبالرغم من ذلك صمدت في مواجهة تلك العيون المتوحشة. ثم انسدلت الجفون الزرقاء ببطء عليهم وجاءني من بين أسنان «علاء الدين» الحادة عرضا لا يمكن رفضه. شيء لا يستطيع من أفقدته الوحدة تمييز هيئة وحدود ولون الواقع أن يرفضه. قبلت العرض ولم أستعلم عن المقابل. كان من عادة مقاتلي الساموراي قديما اتخاذ القرار خلال أنفاس سبع. أما أنا فلم استغرق ذلك الوقت.

كدنا نتعانق عند باب الشقة. ولما أغلقته لاحظت ما كنت عليه من بلل. تشبعت أكمام سترتي بالعرق حتى امتطت. لكنه لم يكن عرقا ناتج عن الخوف. فقد كنت أسمع نبض الكون يصدر بسلام من خلف باب حجرة النوم خاصتي. بل كان رد فعل لإدراكي إمكان إنقاذ حياتي. كل ما أحتاج لفعله هو الانتظار لثلاثة أيام.

كانت تلك هي اللحظة التي قررت فيها تدوين كل شيء. واصلت الكتابة بغير توقف، ليومين اثنين وثلاثة ليال.

لا أريد نسيان تفصيلة واحدة، فلدي شعور بأهمية كل جزء للكل. ضمنت النص شكوكا غير مؤكدة، وأحداثا غير تامة، وكل تلك الأشياء التي

أعجز عن شرحها لنفسي، ولا أعرف لها غاية... لا أدري أيها ذات أهمية، وأيها تافهة، فلا أنا خلقت القصة ولا بإمكاني التحكم فيها. أظنها انتظرت لسنوات قدومي، مكتملة الهيئة وواضحة. تطفو في مكان ما، حيث تحفظ ملفات وقائع الدهر، وتقبع سجلات القدر، وهناك كانت تهتز بصبر نافذ تنتظر مني إطلاق سراحها. وعندما قمت بتنشيطها أخيرا (عبر فعل عفوي ما)، استسلمت لي تماما، وتركتني أنزع عنها الأغلفة. أشعر بالوقائع جميعها مترابطة بإحكام، وأن ما استعصى منها على الفهم يحوم حولي في انتظار دوره. وأرتعب لكون اكتمال القصة يعتمد كلية على شخصي الضعيف، إما ذلك أو أن تبقى ناقصة إلى الأبد، بسبب كسل، أو جهل، أو جبن، وأن تعاود الأغلفة تقييدها وغمسها في الظلام. لكني أقولها مواسيًا نفسي: لعلها إذا انتظرت، أتى شخص آخر فأكملها...

ولهذا الآخر كنت أكتب. لقارئي المجهول، رجلًا كان أو امرأة. فأنا أوقن أن لي قارئًا، فكل مكتوب مقروء لا محالة، وكل عبارة تخط لا لشيء إلا لإغواء قارئ، فما كتب حرف في العالم أجمع لغرض غير ذلك. آمل أن يكون قرائي حسنو النية وأن تكون ملاحظاتي خير عون لهم. ها أنا أربط الصفحات معا، رغبة في حفظ مفكرة «أليكسا» بخط يده الأصلي. فربما كان في المفكرة، أو أرقام الصفحات، أو خدوش الغلاف أي شيء فاتني. وربما تكشف تفصيلة ما في خط «أليكسا» أكثر مما قمت باكتشافه. لا أخشى كوني مصابا بجنون الشك. فأنا - في الواقع - مريض بالشك للدرجة التي تجعلني لا أؤمن بجنون الشك.

فعلت كل شيء بحرص، وأتمنى أن يكون ذلك واضحا. كل ذلك من أجل هذا الشخص الآخر. ولو أنه تمكن من الصمود حتى النهاية، لوجد الأمر أكثر سهولة مما وجدته. كما حرصت كل الحرص على تشويقه وبالتالي دفعه لإكمال القراءة حتى النهاية.

وبينما أكتب الآن، لا أدري ما يحمله القدر من وقائع. لكني أدرك أني لست بطل هذه القصة ولا الراوي العالم ببواطن الأمور. هذا شخص لم تحن ساعته بعد.

وها أنا الآن. أنتظر. لا أشعر بأي من المخاوف. ولا حتى أهونها. أجلس في فجر اليوم الثالث على مقعدي المفضل، كطاغية واثق النفس. يعتقد الأيرلنديون أن البيت يمثل نقطة ارتكاز الإنسان في حربه ضد قوى العالم الآخر غير المحدودة. هكذا كان مقعدي بالنسبة لي.

وبينما الظلام ينبض بهدوء، كنبض قلبي، وجدت لذة في إيقاع الخطوات، تلك التي تقترب من بابي.

- - - - - - - - - - -

كُتِبَت على وريقات لأسباب مختلفة، بعضها على أجزاء من علب البسكويت المصنوعة من الورق المقوى، مثبتة بواسطة مشبك ورقي أو صمغ، أو ملقاة بين الصفحات.

الاستهزاء، والتهكم، والسخرية: فيما يساعدون؟ من يحتاجهم؟ ما فائدتهم؟ من ابتكرهم؟

الجواب: لا شيء؛ لا أحد؛ لا شيء؛ اللعنة عليه!

هؤلاء الذين يستخدمون الاستهزاء، والتهكم، والسخرية يحسبون أنهم يفوقون ضحاياهم ذكاءا. الاستهزاء، والتهكم، والسخرية ضروريات لمن هم كذبة، أو المتذاكين، أو المحتالين، أو المنحرفين، أو الأنانيين، أو كتاب الأعمدة الصحفية، أو الفكاهيين، أو أمثال هؤلاء من الأشرار.

كيف تسجن جني:

كان باستطاعة سحرة الشرق القدامى حبس جني في قنينة. كانوا يضعون في القنينة النحاسية ذيل قطة مع بضعة قطرات من اللون الأزرق. ثم يخرجون الذيل بعد مدة معينة ويكررون لـ٣٣ مرة هذه الجملة: باسم سليمان، ابن داوود، أمير السحرة، آأمر الجني (ثم يسمونه) بدخول القنينة. فيظهر الجني ويتوسل للساحر أن يعتقه. لكن الشرير يقولها بقسوة: السلام عليك، ولتعلم أيها الجني أن بيتك صار الآن تلك القنينة، وأنني سيدك وكل ما أقوله لك أو أفعله بك هو في صالحك ولأجل مساعدتك. فيتحول الجني المسكين عندها إلى دخان أبيض ويلج القنينة طواعية. ثم يضع الساحر سدادة من الرصاص في عنق الزجاجة ويصب فوقها قار ساخن مخلوط بنُسْغ شجرة الأرز.

«الهدية»

«تشيسواف ميوش»

يوم في غاية السعادة.

انقشع الغيم مبكرا. اعتنيت بالحديقة.

كانت الطيور الطنانة تتوقف أعلى أزهار العسلة.

ليس على الأرض ما أطمع في الحصول عليه.

عرفت أن لا أحد يستحق حسدي.

كل ما قاسيت من شرور، نسيته.

لا يربكني كوني كنت من كنت.

لا ألم في جسدي.

عندما اعتدل أرى بحر أزرق وأشرعة.

أطلق الشاعر على هذه القصيدة «الهدية». وهو اختيار موفق. فقد ساعدتني لسنوات، وإن كانت غير فعالة الآن. لكني أكتبها لعل آخر يجدها مفيدة.

وصفة:

إن صب الماء على الورقة المدون عليها القصيدة، فستصبح شايا شافي وفواح.

حسابات:

+٦

+٩

+٢٠٠

+٠

+٦

طريقة تشكل الفلذات:

أجرى «ميرتشا إلياده» بحثا حول المعتقدات الخاصة بالينابيع، والمناجم، والكهوف من حيث علاقتها برحم الأرض. وطبقا لهذا المعتقد، فالمعادن كلها عبارة عن أجنة تنضج في أحشاء الأرض لتصير فلذات كاملة. ولو تركت المعادن في باطن الأرض بدون إزعاج، فإن مئات السنين من النضج ستحول كلا منها إلى ذهب خالص. فالأرض - كما اعتقد الخيميائيون - تتوق لخلق فلذ واحد فقط؛ ليس له من الما صدقات إلا الذهب، فهو غايتها، ووريثها الشرعي، فخلق الذهب يمثل - ولا سواه - الخلق الحقيقي. حتى أن «جاستون بلاشار» يوجهنا بحسم لاستقبال ما نستخرجه من معادن ناقصة كما نستقبل ميلاد المسوخ والوحوش الذين لا ينتجون إلا عن إفساد لعمل الطبيعة، بأن تقابل ممانعة ما تشل يديها، أو تعاني تدخلا يمنعها من مواصلة نشاطها على الوجه الذي اعتادته.

1. الخوف من المرايا

عندما يصمت العالم أخيرا، في الفترة الملتبسة ما بين الليل والنهار، وبينما الظلام يختلط بالضوء، حينها أخاف مواجهة المرايا. لا أعرف بالتحديد ما أخشى رؤيته فيها. وعندما أفكر في ذلك الآن، أجده الخوف من أن يأتي انعكاسي في المرأة بالضبط كما أنا عليه، بينما الأشياء من حولي تتبدل وتتحور.

2. الخوف من المنازل الفارغة

أخاف من أن تكون تلك المنازل في عزلتها قد تمكنت من صنع عالمها الخاص، الذي ينتهك كل حد وقاعدة.

3. الخوف من ميتة مخزية

لا أثق في قدرتي على شرح ذلك كما ينبغي، فللخزي تعريف يختلف من شخص لآخر. لكن دعونا نتفق أن حادثة كالتهامي من قبل سمكة كبيرة تحملني لأبعد الخلجان، حيث يتسنى لها هضمي بسلام، لهو خزي أكيد. أو الموت نتيجة إسهال بشع خلال عرض مسرحي أول.

كذلك هو الموت وحيدا، أمر بشع ولا شك. أن يلحظ الجيران اختفائي مع بداية غزو ديدان جثتي لمنازلهم.

4. الخوف من الأشياء هائلة الحجم

قمت في إحدى المرات بزيارة مصنع يحتوي على مكبس يزن عدة أطنان. وهناك وقفت إلى جوار المكبس الهائل، يملأني الفزع لقوته الرهيبة. ينتابني الخوف نفسه قرب المساحات المفتوحة، وفي مواجهة أعالي البحار، والسهول الموحشة... كما أن التأكيد على لا نهائية الكون يصيبني بالرعب أيضا، تلك النظريات التي تنفي وجود المكان والزمان قبل الانفجار الكبير، وأن الكون كله عبارة عن أوتار أحادية البعد.

5. الخوف من الغابات الشاسعة

ما تزال الأسرار القديمة حية داخل الغابات العميقة التي نجت من لمسات الإنسان، ذلك لأن تطور الطبيعة هناك جاء موافقا لإرادتها. ومن يكون هذا البطل الذي يستطيع معرفة إرادة الطبيعة؟

6. الخوف من الجنون

أطمئن نفسي أحيانا بأن المجنون لا يدرك جنونه، ولا يلحظ اختلاف سلوكه عن سلوك الآخرين. فأثناء الحرب، اعتادت إحدى النساء السير في المدينة غير واعية على الإطلاق بأفعالها، وعارية تماما. كانت تبدو في مشيتها البطيئة كمشهد من كابوس. وأطلق عليها الناس "ليبا «بيرنا»"، أي "«بيرنا» الجميلة".

7. الخوف من الوحدة والظلام

من الأفضل كتابتها هكذا - الخوف من الوحدة أو الظلام. ففي كلاهما الهلاك ذاته.

الأرواح وحيدة

الأرواح فرادا. من النادر جدا رؤيتها على هيئة أزواج. ولذلك فلا سلالة لها. نادرا ما تبتسم، وإن فعلت فهي ابتسامة مخيفة وغير سارة. تثير الفنون اهتمامها، ولهذا السبب تساعد الرسامين، والموسيقيين، والكتاب، وتتواصل أحيانا بالبنائين. أما الرياضة فلا تشغلها. ولا ترتدي ساعة يد أو تحمل مظلة، لكنها - رغم ذلك - لا تخلف ميعادا أو تصاب ببلل. تطلب أحيانا من البشر المساعدة. عادة ما يكون لذلك صلة بالانتقام، كدين يجب قضائه بالدم. وهي تقابل الجميل بمثله. يمكن اقتفاء أثرها بنثر الدقيق، والكشف عن هيئتها بمرآة سوداء. كما تستطيع الخيل شم رائحتها.

(«قوى مدنسة»، «نجيب كورياك». «أوبرازوفانيا»، «بارش»، ١٩٦٩)



حقائق حول الأخوين «بيجاسوس»

أجرى الأخوين «بيجاسوس» عملية إخلاء من المدينة أثناء الحرب.

نظم الأخوين «بيجاسوس» سلسلة من جرائم القتل الغامضة.

اتخذ الأخوين «بيجاسوس» من المنجم المكشوف مقبرة لقتلاهم.

أشرف الأخوين «بيجاسوس» على عمليات تعذيب في مدرسة الموسيقى.

يتحمل الأخوين «بيجاسوس» المسئولية عن وفاة صحفي الإذاعة «أليكساندر رانكوفيتش».

يسيطر الأخوين «بيجاسوس» على النشاط الإجرامي في المدينة.

يسيطر الأخوين «بيجاسوس» على سير الحياة في المدينة.

أفسد الأخوين «بيجاسوس» المدينة.

زرع الأخوين «بيجاسوس» الشرور في نفوس البشر.

يستطيع الأخوين «بيجاسوس» منع شروق الشمس.

يتحمل الأخوين «بيجاسوس» المسئولية عن تحقق علامات الساعة الصغرى.

ليس للأخوين «بيجاسوس» أرواحا ولا أهدافا.

يحب الأخوين «بيجاسوس» الاستهزاء، والتهكم، والسخرية.



الحصان السحري «تشال-كوروك»

يكن أهل «قرغيزستان» الاحترام الشديد للحصان السحري «تشال-كوروك»، الذي يركض بين العالمين. جاء في إحدى القصائد الملحمية على لسانه: أستطيع السير في المياه العميقة.

وحملت نفس القصيدة تحذيرا للفارس، يقول:

كتفاك عريضين، لكن روحك ضيقة: قليلا ما تفكر.
ذاك الذي أرى، محجوب عنك، وذاك الذي أعرف، غائب عنك،
نعم، أنت شجاع، لكنك أرعن.

يتحمل «تشال-كوروك» آلاما بشعة في سبيل اجتيازه الحدود ما بين العالمين. فعبور الهوة الفاصلة بين الأحياء والأموات تتطلب قيام الفارس بشحذ قوى فرسه عن طريق قطع قطعة لحم لها حجم نعجة صغيرة، مستخدما سوطه.



نصائح

الوحدة هي البكتريا التي تخمر الواقع، فتجرده من الهيئة، والحدود، والصورة، واللون.

«برونو شولز»

كما المياه الداكنة، يحيا هذا الرجل.

«ناظم حكمت»

الموت داخلي أكبر من الحياة، كنغمة نتجت عن ضغطة زر.

«ويتولد جومبرويتش»

للرجل قدر من الإنسانية، يقارب قدر ما يملك من قدرة على الطيران.

«لويس فرديناند سيلين»

يعجز البالغون الذين يدخلون عالم الحكايات الخيالية عن الخروج منه. أكنت تدري ذلك؟

«فم الذهب» لـ«كورتو مالتيسي»

وهذه أيضا، قال «مارلو» فجأة، كانت إحدى بقاع الأرض المظلمة.

«جوزيف كونراد»



وجدت المفكرة مدفونة في ركن من أركان المكتبة، في بقعة مررت بها للمرة الأولى في حياتي مصادفة، رغم زيارتي المكتبة بصورة شبه يومية. ليس لدي شيء أفضل لأفعله. لم يكن العثور عليها صعبا، قليل من الحركات البسيطة لا غير: تغيير مسار ذهابي وعودتي المعتاد، وغض البصر عن صف روايات ألمانية، وتحريك كتفي بلامبالاة، ونصف خطوة للخلف، والسير لمتر بعد حدود الأرفف، وها أنا في ذلك الجزء المهمل من المكتبة، حيث وضعت الكتب الخاصة بالتعدين وعلم المعادن، إلى جوار كتيبات للتمارين، ودفاتر منسوخة، وأطروحات علمية باطلة، ودراسات تخص مصانع هدمت منذ زمن، وسير ذاتية لإنسانيين منذ عهد الشيوعية، وموسوعات عن تقنيات عفا عنها الزمن... كتب منسية، كتب لا يحتاجها أحد. لا أعرف كيف أمسكت بطرف غلاف الكتاب البارز بالكاد من بين الكومة، وسحبته. كما أجهل السبب الذي دفعني لأخذه، وإخفائه تحت القميص ثم الخروج به، عبرت حينها المكتبة أتصبب عرقا، وارتعد خوفا تحت نظرات أمينة المكتبة. تلك المفكرة هي الشيء الوحيد الذي سرقته في حياتي. وقد كانت تجربة شيقة.

قرأتها بالكامل في ليلة واحدة. لم تستهوني قراءة بهذه الدرجة من قبل. هل سبق وعايشت ذلك الشعور الغريب، أن يطلعك أحدهم على صورة لك كنت تجهلها؟ كأنك تنظر إلى شخص غريب؛ أنت تدرك - بالتأكيد - أنه أنت، لكنك لا تشعر أنها كذلك.

عندما هاجمني النوم بعد قراءة المفكرة، لم أتمكن من الصمود سوى بضعة دقائق. لا أكثر من ذلك. لكنه كان كافيا لمعايشة كابوس صغير. في

الكابوس رأيت طفلة، تقف وحيدة في الظلام، بينما الدمع يملأ عينيها الزرقاوين. كانت تلتفت باستمرار، كأنما تنتظر شخصا ما. وقد تأخر هذا الشخص بالفعل، لذا ظنته الفتاة لن يأتي أبدا. وكان هذا سبب خوفها، وكان خوفها هذا يتنامى مع كل لحظة.

كانت هناك كمية هائلة من الخوف. كمية تكفي مئات من الأعمار. وكل ما في الحياة يمكن اختزاله - بصورة ما - إلى الحب والخوف. فالشرور جميعها تصدر عن الخوف، تندلع الحروف من الخوف، فشر الحروب نابع من الإذلال، والإذلال هو ما يفعله الخائفون بالآخرين. لم يعد لدي أي سبب للخوف. فعندما يصل الشخص إلى القاع - كما تعرف، فقد قرأتها أنت أيضا - لا يبقى مجال إلا للارتداد ثانية.

تركت سبع صفحات فارغة في نهاية المفكرة. ستكون هذه المساحة كافية للقصة التي أنتوي سردها بالطريقة المثلى.

(سبع صفحات فارغة)





#كتب_مختلفة #البوسنة

مدينة تحت الحصار، ولقاءات مع أشباح، توأم شيطانى يتخذ من حرب البوسنة ذريعة للعودة والانتقام، هذه هى أبرز عوالم الرواية التى تدور أحداثها فى إطار بالغ من التشويق والإثارة. فبعدما يلتقى بطلها بابنة صديقه القديم، تحمل إليه نبأ اختفاء والدها، يحملان دفتره الذى دون فيه يومياته عن الحرب، وينطلقان فى رحلة شيقة لن تستطيع أن تغيب عن أحداثها إلا بإنتهاء صفحات الكتاب.



سلافيدين أفيدتش: أديب بوسني، ولد عام 1969 في مدينة "زينيتسا". صدرت مجموعته القصصية الأولى بعنوان "الأرواح الشريرة وخيالات أخرى" عام 2004. يشغل منصب رئيس تحرير جريدة "جورناو" الإلكترونية، كما أن لديه برنامج إذاعي خاص به. تم نشر روايته الأولى "مخاوفي السبعة" عام 2010، لتحتل على الفور مكانا في القائمة القصيرة لإحدى أهم الجوائز الأدبية في البلقان. ترجمت إلى الإنجليزية عام 2012 ونافست في القائمة الطويلة لجائزة إمباك دبلن العالمية للأدب 2014.





60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-210-5
9 789773 192105 >



تصميم الغلاف: محمد سيد